كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

ركب الحاج المغربي وأثره في تقوية الروابط بين مصر والمغرب في القرن الثامن عشر
(من واقع نخبة مختارة من الرحلات الحجازية)

إعداد

د/ شيرين مبارك فضل الله

مدرس التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الدراسات الأفريقية العليا – جامعة القاهرة

(العدد الأربعون)
(الإصدار الأول ـ الجزء الخامس)
(١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م)

ركب الحاج المغربي وأثره في تقوية الروابط بين مصر والمغرب في القرن الثامن عشر

(من واقع نخبة مختارة من الرحلات الحجازية)

شيرين مبارك فضل الله

قسم التاريخ، كلية الدراسات الأفريقية العليا، جامعة القاهرة ، مصر.

البريد: Shireen.mubarak@cu.edu.eg

الملخص:

تمثل رحلة الحج للمسلم تعظيمًا لشعيرة مهمة من شعائر الله، {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [البقرة:١٩٦]. الحج فريضة يجب على كل مسلم أن يقوم بها مرة واحدة على الأقل في حياته إذا كان مستطيعًا لذلك {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا} [آل عمران: ٩٧]، لذلك؛ يعد الحج الحدث الأكثر روحانية الذي يختبره المسلم في حياته، من خلال ممارسة الشعائر التي أمر بها الله في أيام مَعْلُومَاتٍ ومعدُودَاتٍ، في أكثر الأماكن قداسة في العالم الإسلامي، مكة المكرمة، لذا أصبح الحج وفريضته أعظم ما يرنو ويطمح إليه المسلمون في كافة بقاع الأرض.

انتظم حجاج المغرب في ركب الحاج المغربي. وقد ارتبط هذا الركب منذ تكوينه بمصر، التي كانت محطة مهمة في طريقه للبقاع المقدسة ذهابًا وإيابًا، لذلك، كان المغاربة ينظرون إلى مصر باعتبارها مقرهم في الشرق، كونها واسطة العقد بين المشرق والمغرب الإسلامي موقعًا ومسافة، فيغادرونها لمكة المكرمة، ولغيرها من مراكز الثقافة المشرقية، ولكنهم يعودون للمركز مرة أخرى.

بناءً عليه، يتناول البحث أثر ركب الحاج المغربي في تقوية الروابط والصلات بين مصر والمغرب في القرن الثامن عشر، من خلال بيان أهمية الرحلة الحجازية لدي المغاربة، ومناقشة دور الأزهر وعلماء مصر في تقوية الروابط العلمية بين المصريين

والمغاربة، إضافة لرصد تفاعل العلاقات بين المصريين والمغاربة أثناء إقامة المغاربة في مصر، مع بيان أهم الجوانب السياسية والاقتصادية لركب الحاج المغربي إبان تلك الفترة، من واقع كتب الرحلات الحجازية التي أَرَّخَت لأحداث رحلة الحج.

الكلمات المفتاحية

ركب الحاج – مصر – المغرب – الروابط والصلات – الرحلات الحجازية.

The Moroccan Pilgrimage convoy and its impact on strengthening the ties between Egypt and Morocco in the eighteenth century

Sherine Mubarak Fadlallah
Department of History , Graduate School of African Studies , Cairo University , Egypt.
Email : Shireen.mubarak@cu .edu.eg

Abstract

Hajj is one of the five pillars of Islam central to Muslim belief, Hajj is the pilgrimage to Mecca that every Muslim must make at least once in their lifetime if they are able; it is the most spiritual event that a Muslim experiences, observing rituals in the most sacred places in the Islamic world. Mecca is the birthplace of the Prophet Muhammad. The sanctuary there with the Ka'ba is the holiest site in Islam. As such, it is a deeply spiritual destination for Muslims all over the world; it is the heart of Islam. Hajj is the world's largest transnational religious movement, listed as one of the religious pillars of the Islamic faith. Viewing hajj within the context of Islam's continued global territorial expansion of the faith from the understanding of Islam and its participation in international relations. Hajj also has impacts on many specific areas of international relation perspective of international relations is of great benefit to a better. The pilgrims of Morocco were organized in the Moroccan pilgrim convoy, which has been linked since its formation with Egypt, which was an important stop on their way to the holy places back and forth, and the Moroccans formed an important component of the Egyptian pilgrimage convoy; Therefore, the Moroccans viewed Egypt as their headquarters in the East, as it is the mediator of the contract between the East and the Islamic Maghreb, as a location and a distance.

Keywords: Pilgrimage convoy, Egypt, Moroco, Eighteenth century.

مقدمـــــة:

مثلت رحلة الحج أو الرحلة الحجازية – كما اصطلح على تسميتها– للمغاربة منتهى آمالهم وجُلّ مرادهم، أو كما وصفها الرحالة العبدري (ت ٧٠٠هـ): لا يخلو فكر من تصورها ولا خاطر من توهمها. كانت الرحلة الحجازية تمثل هرمًا قمّته الحج، وعناصر متعددة تشكل قاعدة الهرم بالنسبة لحجيج البيت العتيق، يَشْهَدُوا من خلالها مَنَافِعَ لَهُمْ في الدنيا كما أصابوا من الدين؛ مثل طلب العلم، والتجارة، والسفارة الدبلوماسية، فتُعطَى الوسيلة – الرحلة– حكم الغاية التي هي حج البيت فتتحول كل خطوة في الرحلة إلى جزء من الحج، مُتمثِّلين في ذلك قوله تعالى {لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ} [الحج:٢٨]، وبالتالي كانت رحلة الحج حجر زاوية مهم جدًا في علاقة المغرب بالمشرق.

يتضمن مفهوم الرحلة التدوين وإلا كانت سفراً أو تنقلًا، فإن صحب الرحلة التدوين تحولت إلى مصدر للمعرفة ومرجعية جغرافية، تاريخية، اجتماعية، وثقافية، تخلق مفارقة وتصنع حدثًا، وقد أحرز أهل الغرب الإسلامي قصب السبق في تدوين الرحلات. تعتبر كتب الرحلات الحجازية تقليدًا عريقًا في التراث المغربي، دأب عليه علماء المغرب وأدباؤه، من باب تخليد رحلاتهم وما مر بهم خلالها، إضافة إلى رسم صورة دقيقة للمجتمعات المشرقية التي زارها الحاج الرحالة وقضى وقتًا معتبرًا بين ظهرانيها.

يرجع اهتمام المغاربة بتدوين رحلاتهم الحجازية إلى عدد من الأسباب، منها: قيمة رحلة الحج وأهميتها، فمهما تنوعت الرَّحلات واختلفت؛ فإنَّ أعظم رحلة يقوم بها إنسان هي تلك الرّحلة التي تسبق مشاعرُه فيها جوارحَه، وترنو إليها روحه سابقةً جسده قبل الشُّروع فيها، ولا تجتمع هذه الصفات إلا لقاصدي البيت العتيق، فبرغم بُعْد الشّقة، ومخاطر الطريق، كان لرحلة الحج لدى المغاربة منزلة خاصة، لذلك حرصوا على حفظها من خلال تدوينها، إضافة إلى نقل دقائقها إلى من ينتظرونهم حال عودتهم لديارهم، لعلهم يسكنون

لهفة أهليهم الدائمة، وشغفهم الذى لا ينقطع لزيارة البيت الحرام وقبر الرسول بالمدينة المنورة.

كذلك كان اختلاف أحوال مؤلفي الرحلة، ما بين رحلة شخصية، أو مرافق لأمير أو سلطان، أو على رأس وفد الدولة، أو أميرٍ لموكب حجِّها، سببًا آخر من أسباب التدوين، حيث كان يستلزم من صاحب الرحلة كتابة تقرير مفصل عن الرحلة لرفعه إلى ولى الأمر حال عودته للمغرب. أضف لما سبق، أن عددًا كبيرًا من الحجاج المغاربة كانوا من الفقهاء، وطلاب العلم، أى أنهم مَثَّلوا النخبة المثقفة فى عصرهم، لذا حرصوا على توثيق وتسجيل دقائق رحلاتهم للشرق، وإحصاء الإجازات العلمية التي حصلوا عليها، وذكر من جالسوا من الكبراء، وخالطوا من العلماء، يحدوهم دافع أن الهدف من توثيق الرحلة أن تكون ديوان علم، مما أثمر فنًا جديدًا عرف باسم فن الفهارس، أو المعاجم، أو المشيخات، وهو فن امتزج بعدد كبير من الرحلات المغربية.

بناءً على اختلاف أحوال مؤلفي الرحلة اختلفت بالتالي مدة الرحلة من حاج لآخر، سواء كان طالب علم أو رحالة أو تاجر أو صاحب منصب وسلطة، بحسب الظروف الشخصية لكل حاج، وبحسب الهدف الخاص من الرحلة، قد تستغرق الرحلة شهورًا معدودة للحج كرحلة الوزير الإسحاقي (ت بعد ١١٥٠هـ)، أو سنوات لمن رام طلب العلم كرحلة الفقيه الحضيكي (ت١١٨٩هـ)، وقد يأتي البعض للحج فيطيب له المقام ويستوطن مصر، لذلك كانت الجالية المغربية بكل من القاهرة والإسكندرية من أهم وأكبر الجاليات بمصر.

كان لمصر نصيب الأسد من الوصف في الرحلات الحجازية المغربية، نظرًا للمدة الطويلة التي يقضيها الحاج المغربي في رحابها وبين أهلها، ونظرًا لعمرانها وحضارتها ونظمها، وتفردها بطبيعة خاصة تزدحم فيها التفاصيل. من أهم كتب الرحلات التي أَرَّخَت للرحلة الحجازية في القرن الثامن عشر، وجاء فيها ذكر مفصل لمصر (الرحلة الناصرية) لمؤلفها، الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت ١١٢٩هـ)، تعتبر الرحلة

الناصرية من أوفى الرحلات إلى الحج و أحفلها بالمعلومات، نتيجة كثرة رحلات الشيخ ابن ناصر الحجية، حيث رحل الشيخ في أربع رحلات إلى الحج، الأولى صحبه والده، سنة (١٠٧٦هـ)، وعمره تسعة عشر عامًا، والثانية سنة (١٠٩٦هـ)، والثالثة كانت سنة (١١٠٩هـ) والرابعة والأخيرة كانت سنة (١١٢١هـ) وعمره أربع وستون عامًا، وهي المعروفة باسم الرحلة الناصرية، مما كان له أثر واضح في جعل الوصف لمراحل الرحلة وما تخللها أكثر إبداعًا، مع تطور أسلوب الكاتب الذى زاده النضج حكمة ومعقولية عبر الزمن.

كما تعد (رحلة الإسحاقي)، لصاحبها الوزير أبو محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي (ت بعد ١١٥٠هـ) من أهم الرحلات التي قام بها رجل دولة مغربي إلى المشرق في القرن الثامن عشر. كان الإسحاقي مكلفًا من السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل بمرافقة والدته الأميرة (خناثة المغافرية) في رحلتها الحجية، وفى تسجيله للرحلة كان الإسحاقي حريصًا على توثيق الأخبار والمعلومات التي ساقها عن الأقوام والبلدان التي مر بها، لاسيما المجتمع المصري، الذي أفرد له مساحة مهمة من تعليقاته.

ومن الرحلات الحجازية المهمة أيضًا رحلة الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد الحضيكي (ت١١٨٩هـ). كان ذهابه للحج سنة ١١٥٢هـ/١٧٤٠م. جمع صاحب الرحلة بين طلب العلم وأداء فريضة الحج، فرسم من خلال من كتب جانب مهم من جوانب الحياة العلمية بمصر، من خلال تعريفه بشيوخه، وما تلقاه عنهم من فوائد وإجازات، واصفًا البقاع والمزارات التي شاهدها وصفًا دقيقًا، وأغنى رحلته بإفاداته التاريخية والجغرافية وتعليقاته الأدبية نثرًا وشعرًا، وهي لذلك تعتبر مصدرًا تاريخيًا وجغرافيًا وأدبيًا مهمًا.

كما تعد رحلة مؤرخ الدولة العلوية الوزير أبو القاسم الزياني (ت ١٢٤٩هـ) الموسومة بـ (الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برًا وبحرًا)، واحدة من أهم الرحلات الحجازية التي أرخت لأحوال المجتمعات المشرقية إبان القرن الثامن عشر، من وجهة نظر رجل الدولة العالم، وهي ليست رحلة واحدة، بل ثلاث رحلات، قام بهم الزياني للمشرق.

سجل الزياني إلى جانب كتابة مذكراته الكثير من فصول التاريخ قديمه وحديثه، إضافة إلى ذكر الحوادث السياسية الكبرى في عصره، والزمن الطويل الذي مضى من عمره في مجال السياسة، ككاتب خاص للسلطان محمد بن عبد الله، ثم كوزير وسفير.

بهذا اعتمدت الباحثة على رحلات حجازية مغربية مختارة، تنوعت فيها شخصيات، وخلفيات، ومنطلقات صاحب الرحلة ما بين الرحالة صاحب المنصب السياسي، والشيخ العالم، وطالب العلم. الجدير بالذكر، أن البحث يأخذ جانبًا واحدًا فقط يصور الروابط والصلات بين مصر والمغرب إبان القرن الثامن عشر، يتمثل هذا الجانب المختار فى رحلة الحاج المغربي أو ركب الحج الفاسي كما كان يطلق عليه، ومن خلال ركب الحاج يرصد البحث الروابط التي جمعت المصريين والمغاربة، عبر تتبع ما سطره الرحالة المغاربة في كتبهم عن مصر، لما لكتب الرَّحلات آنذاك من عناية بالشُّؤون الدينية الخاصة بطبيعة الرحلة، واهتمام بالأوضاع الاجتماعية، والسِّياسية، والاقتصادية، والعلمية، لقاطني الدِّيار التي يمرُّ بها الحاج الرّحالة.

بناء عليه، تتوخى هذه الدراسة غايتين: أولهما– محاولة إلقاء الضوء على زوايا مختلفة للروابط والصلات بين مصر والمغرب من خلال الرحلات الحجية التي أَرَّخَ فيها نخب الحجاج من العلماء ورجال السياسة والبارزين في المجتمع لتاريخ هذا القرن من خلال التدوين والوصف. ثانيهما– التعريف بأهم كتب الرحلات التي تناولت رحلة ركب الحاج المغربي في القرن الثامن عشر، وما جاء فيها من ذكر لمدن وعلماء مصر، وطقوسها الدينية، وصورة مجتمعها. خاصة أن هذه الرحلات كشفت لنا عن طبيعة الوعي بالآخر، الذي تشكل عن طريق التلاقح والاحتكاك خلال الرحلة، كما قدمت لنا صورة عن الارتباط الوثيق الذي جمع طرفي الأمة الإسلامية شرقها بغربها.

أولًا- أهمية الرحلة الحجازية لدى المغاربة.

الرِّحلةُ في اللغة: هي الترحل والارتحالُ، أي الانتقال إلى مكان آخر، والرحلة اسم للمسير [١]. وجاء في مقاييس اللغة مادة (ر ح ل): الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على المضي في سفر [٢]. أما من ناحية الإصطلاح، يعد أدب الرحلة من أقدم الفنون الأدبية، وهو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، قد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوكيات، أو وصف للطبيعة الجغرافية أو يسرد مراحل رحلته، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد، مما يجعل الرحلة في كثير من الأحيان مرجعًا وثائقيًا مهمًا [٣].

تعد الرحلات من أهم فنون الأدب العربي [٤]، يقتضي التأليف فيها ثقافة واسعة، ودقة في الملاحظة، وما يميز الرحلة هو الأسلوب الذي كتبت به أولًا ثم المعلومات التي تتضمنها[٥]. أثار أدب الرحلات العربية اهتمامًا بالغًا بسبب تنوعه، وغنى مادته [٦]. كان لطول المدة التي يقضيها الحاج المغربي في أحضان المراكز الثقافية المشرقية، عاملاً مهماً

---

[١] ابن منظور، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين (ت ٧١١هـ): معجم لسان العرب، الجزء ١١، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ص ٢٧٩.

[٢] أحمد بن فارس بن زكريا أبو الحسين: معجم مقاييس اللغة، الجزء الثاني، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٤٩٨.

[٣] مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، الطبعة الثانية، مكتبة بيروت، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٧.

[٤] شوقى ضيف: الرحلات، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٨.

[٥] جبور عبد النور: المعجم الأدبي، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٢٢.

[٦] أغناطيوس يوليا كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٤.

في غنى الرحلات المغربية، وهو ما قدم لنا فنًا أدبيًا مميزًا سمي بأدب الرحلات الحجازية [١]. برز المغاربة في هذا الفن، وتميزت رحلاتهم للمشرق بقيمة عظيمة بمحتواها الجغرافي والتاريخي، حيث كانت بمثابة تأريخ وتسجيل من واقع المعايشة لأحوال المشرق الدينية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية [٢].

مثَّلت رحلة الحج في نظر المغاربة غاية سامية، فكان لابد من أدائه سنويًا حتى فى أشد الظروف حرجًا، ليس أدل على ذلك من استمرار الرحلة سنويًا بالرغم من الأخطار التى يمكن أن تعتريها، مثل انتشار الأوبئة فى المدن التى يمر بها ركب الحاج، إضافة للتهديدات الأمنية والعسكرية، فضلًا عن بُعْد الشّقة، ومخاطر الطريق، وصعوبة توفير المؤونة الكافية. كل هذه العقبات لم تؤدى إلى تثبيط همة المغاربة لخوض غمار رحلة الحج بالرغم من المصاعب التي اكتنفتها من كل جانب، بل على العكس فقد أجج البعد والصعاب المزيد من الشوق لزيارة هذه البقاع المباركة [٣].

كان الغرض الأساس من الرحلة الحجازية تأدية فريضة الحج، ومع ذلك فقد كان للرحلة أغراضًا أخرى تفرعت عن هذا الباعث الدينى، مثل طلب العلم، حيث مثلت الرحلة

(١) اشتهر المغاربة بهذا الفن، واحتوت خزائن المكتبات المغربية بكتب خاصة سميت بكتب الرحلات، منها ما هو مخطوط، ومنها ما هو مطبوع ومحقق، وإن كان الغالب منها مخطوطًا. عبدالهادى التازى: أمير مغربي فى طرابلس ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م، أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقى، د.ت، ص ١١٥.

(٢) محمد بن مفرح الشرمان: رحلة الوزير الإسحاقى إلى الحجاز عام ١١٤٣هـ/١٧٣١م، تحقيق ودراسة النص الخاص بالحجاز، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، ٢٠١٢، ص ٦.

(٣) عواطف بنت محمد يوسف نواب: كتب الرحلات فى المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين، دراسة تحليلة نقدية مقارنة، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٩هـ، ص ٢٩.

الحجازية الطريق إلى المشرق، الذي كان يعد المرجعية العلمية ومركز الثقل فى العالم الإسلامي. وقد شكل العامل الجغرافي الذي جعل المغرب فى أقصى نقطة من خارطة العالم الإسلامي دافعًا قويًا لأهل المغرب للتواصل مع عواصم الثقافة المشرقية، للقاء العلماء، بحثًا عن جواب لسؤال، أو تحقيقًا لمسألة، والتحلي بإجازات علمية عالية السند من علماء الأزهر الشريف، وشيوخ مكة والمدينة، مما أدى إلى ازدهار التبادل العلمي بين المشرق والمغرب على مستوى الإفتاء والاستفتاء مما يؤكد تشابه المشاغل العلمية والنوازل [١].

إضافة إلى طلب العلم، كان هناك دوافع سياسية للرحلة كأن تكون سفارة بين الملوك والحكام، لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات، أو مرافقة الملوك والأمراء في طريقهم للحج، بتكليف رسمي، لتسجيل الرحلة. فضلًا عن ولع المغاربة بالسياحة في الأرض، وارتيادهم لأقاصي البلاد، ورغبتهم في التعرف على البلدان والأمصار المشرقية، والوقوف عند معالمها التاريخية، وأحوالها العمرانية. ارتبطت رحلة الحج أيضًا بالجانب الاقتصادي، وتداخلت مع ممارسة التجارة، نتيجة الطواف على مختلف الأسواق طوال مراحل الرحلة [٢]. إجمالًا؛ مثلت الرحلة الحجازية للمغاربة بمقاصدها الدينية والعلمية والسياسية طريقًا للمجد، وشكلت سبيلًا

(١) حرصت التراجم التى أرخت لكثير من العلماء المغاربة على ذكر عبارة أثيرة، عقب عودتهم من المشرق، وهي:" وكانت له رحلة إلى المشرق، وعاد بعلم غزير". حماه الله ولد السالم: الإسلام والثقافة العربية فى الصحراء الكبرى، دراسات ومراجعات، دار الكتب العلمية، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٦٥، ٧١.

(٢) مصطفى الغاشي: الرحلة المغربية والشرق العثمانى محاولة في بناء الصورة، الطبعة الأولى، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠١٥، ص ٢٠٥.

للشهرة والتألق فى مجتمع ظلت أنظاره وأفئدته مرتبطة بالمشرق كرمز للصفاء والطهارة والنقاء، وكعلامة للجذور والأصول، ومنبع للشريعة وأصول الدين [١].

ثانياً- هيئة ومسالك ركب الحاج المغربي وصولاً إلى مصر.

امتاز ركب الحاج المغربي بشموليته على الصعيدين الجغرافي والاجتماعي، وكونه يجمع بين الطابع الرسمي والنخبوي والشعبي، فهو يضم، من جهة، حجاجًا من مختلف بوادى ومدن المغرب، وكذا مختلف طبقات المجتمع المغربي؛ من الأمراء، ورجال الدولة، والأعيان، والعلماء، والتجار، ومطلق أفراد الشعب المغربي، واتسع، من جهة ثانية، لحجاج شمال وغرب أفريقيا [٢]. وقد جرت العادة على خروج ركب الحج من مدينة (فاس) [٣]، لهذا أطلق عليه ركب الحج الفاسي، وقد تأكدت هذه التسمية فى مصر، ليس فقط بسبب الخروج من فاس، وإنما تمييزاً له عن سائر وفود الحجيج التى كانت تأتى من بلاد المغرب [٤].

(١) أبى سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشي (ت ١٠٩٠هـ): الرحلة العياشية ١٦٦١-١٦٦٣م، حققها وقدم لها: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار السويدي للطبع والنشر، أبو ظبي، ٢٠٠٦، ص ١١.

(٢) يونان لبيب رزق، محمد مزين: تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٢، ص ٣٤.

(٣) يرجع تأسيس ركب الحاج المغربي إلى أوائل عهد الدولة المرينية، هيأه السلطان يوسف بن يعقوب المريني (٦٨٥- ٧٠٦هـ/ ١٢٨٦- ١٣٠٦م) عام ٧٠٣هـ، وبعثه للأراضي المقدسة، واستمر فى الذهاب للشرق حتى القرن التاسع عشر، وأصبح الركب الرسمي في عهد الدولتين المرينية والعلوية، الأمر الذي أكسبه أبهة وجلالاً جعلاه يضاهى ركب مصر والشام، حيث اهتمّ المغاربة به اهتمامًا فائقًا، حكومة وشعبًا. محمد المنوني: من حديث الركب المغربي، مطبعة المخزن، تطوان، ١٩٥٣، ص١٦.

(٤) بالإضافة إلى الوفد الفاسي كان هناك ثلاثة وفود أخرى من بلاد المغرب، واحد من الجزائر، والثانى من تونس، والثالث من طرابلسِ. نفس المرجع والصفحة، ص ١٦.

ظلت مدينة (فاس) المنطلق لركب الحاج المغربي، سواء كانت عاصمة للمغرب كما كان الحال فى العهد المريني (٦٥٦- ٨٦٩ هـ/ ١٢٥٨ – ١٤٦٥م) والعهد الوطاسي (٨٣١- ٩٥٧هـ/١٤٢٨- ١٥٥٠م)، أو لم تكن، وذلك؛ حينما انتقلت العاصمة إلى (مراكش) فى العهد السعدي (٩١٦- ١٠٦٤هـ/ ١٥٤٠- ١٦٥٤م)، أو إلى (مكناس) فى عهد الدولة العلوية (١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م حتى الآن)[١]. وليس من تفسير لهذه الوضعية التى تمتعت بها (فاس) سوى مكانتها الدينية التى استمدتها من وجود جامع القرويين بها، وكونها مركز أهل الحل والعقد، إضافة إلى موقعها الجغرافي، الذي جعلها ملتقى لشتى الطرق القادمة من سائر أنحاء البلاد[٢].

(١) ظهرت الدولة العلوية كقوة سياسية لها وزنها إثر انتفاضة سجلماسة التى قادها المولى الشريف. وقد بويع لابنه محمد بن الشريف، وهو المعروف في تاريخ الدولة العلوية بمحمد الأول، فى سجلماسة سنة ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م، وتعد فترة حكمه فترة انتقالية بين عهدين، عهد الحركات الطائفية المتصارعة على الحكم نتيجة ضعف الدولة السعدية، وعهد انبعاث النظام الجديد، وبعد وفاة محمد الأول بويع لأخيه الرشيد (١٦٦٤/١٦٧١م)، ويرجع الفضل للسلطان الرشيد فى ترسيخ أسس الدولة الناشئة، وتوحيد المغرب تحت سلطته. وقد بلغت الدولة أوج الازدهار والاستقرار فى عهد المولى أبا النصر إسماعيل بن الشريف (١٦٧١/١٧٢٧م)، اهتم المولى إسماعيل ببناء جيش وطني قوى، وتمكن من استعادة الثغور المغربية التى وقعت فى قبضة الأجانب أواخر عهد الدولة السعدية. انظر، الإفراني، محمد الصغير (ت ١١٥٦هـ): نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلى، الطبعة الأولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ص ٢٢٩، ٤٢٥.

(٢) أهل الحل والعقد: جماعة العلماء الذين كانت تتم على يدهم مبايعة السلاطين المغاربة مبايعة شرعية. يونان لبيب رزق، محمد مزين: مرجع سبق ذكره، ص ٣٥. البيعة في الإسلام هي الأسلوب الشرعي في تنصيب الحاكم (أمير المؤمنين) وهي أساس الدستور الإسلامي في تشكيل السلطة العليا لتسيير شؤون المسلمين. أما أهل الحل والعقد فهم الذين يمثلون الأمة في اختيار حاكمهم باعتبار أن هذا الأمر فرض كفاية على الأمة، يتصدرهم العلماء (أهل الاجتهاد) والرؤساء، ووجوه الناس وأعيانهم. لمزيد من المعلومات راجع، عبد الله بن إبراهيم الطريقي: أهل الحل والعقد: صفاتهم ووظائفهم، منشورات رابطة العالم الإسلامي، مكة، ٢٠٠٥، ص ١٨.

تألف الركب الفاسي من رئيس سمى شيخ الركب، أو أمير الركب. كانت العائلات المغربية تتداول إمارة ركب الحاج فيما بينها، وفى عهد الدولة العلوية تداولتها عائلات مختلفة، أطولها أمدًا بيت (أولاد عديل)، فقد تسلست فى بيتهم رئاسة الركب الفاسي لمدة طويلة، تزيد عن الأربعين عامًا، بدأت – تقريبًا– من بعد عام ١١٢١ هـ/١٧٠٩م، وانتهت بعد عام ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨م، وطوال هذه المدة لا يذهب مع الركب الفاسي إلا أمراء من هذه العائلة أو من ينيبونه عنهم [١].

كان خروج الركب الفاسي يتم فى أواخر شهر جمادي الثاني، فى السابع والعشرين أو الثامن والعشرين منه، بحيث يستهل عليه شهر رجب وهو فى مدينة (تازا) أو بعدها [٢]. كان الركب يبرز فى هيئة بديعة وشارة حسنة، وقد يحضر السلطان ورجال حاشيته، ويقومون بواجبات توديع الركب. تميز الركب خلال القرن الثامن عشر بالتنظيم والترتيب والحماية الأمنية، حيث اهتم به سلاطين الدولة العلوية، وانتدبوا له فرقة من الفرسان لحمايته، واعتبروه عنوانًا لقوة واستقلال المغرب. وما أن تنتهي مراسم الاحتفال بالركب حتى يبدأ خروجه ميممًا وجهه تجاه الشرق، قاصدًا مصر، وهو طوال رحلته تجاه مقصده إنما كان يعبر بشتى

(١) كان أول الرؤساء من بيت عديل الحاج محمد عديل، وكان من وجوه التجار، تولى إمارة ركب الحاج، وحج به عامًا أو عامين، كانت ولايته من بعد عام ١١٢١هـ /١٧٠٩م تقريبًا، ثم تولى بعد ذلك أولاده وأولاد أخيه، وهم: الشيخ عبد العزيز، الشيخ الخياط، الشيخ عبد القادر، ثم الشيخ الشاوى، فالشيخ عبد الخالق، وكان الشيخ محمد بن الشاوى، هو أخر من تقلد إمارة الحج من عائلة عديل، كانت ولايته عام ١١٦٢هـ/ ١٧٤٨م، ثم تولى رئاسة الركب بعد ذلك الحاج محمد الفلوسي عام ١١٦٦هـ، وهو أول من تولاها بعد آل عديل. محمد المنوني: مرجع سبق ذكره، ص٣١.

(٢) تازا: تعد حدًا ما بين المغرب الأوسط وبلاد المغرب، تقع شرق مدينة فاس، وهي على الطريق المار من المغرب إلى المشرق. الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ): الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، ص ١٢٨.

البلدان ليس أكثر من عبور يتزود خلاله بالغذاء وأسباب الركوب، أما حين يصل الركب إلى مصر فكان الأمر يختلف [١].

لم تختلف طرق الحجاج المغاربة عن طرق القوافل التجارية التقليدية، ومن أهم هذه الطرق: الطريق البري الساحلي الشمالي، والطريق البري الصحراوي الجنوبي [٢]. كان الركب الفاسي ينطلق من الطريق البري الساحلي الشمالي، الذي يبدأ من (فاس)، ثم (ولجة العسال)،

(١) يونان لبيب رزق، محمد مزين: مرجع سبق ذكره، ص ٣٦.

(٢) كان الطريق الصحراوي يربط المدن الصحراوية بجنوب المغرب الأقصى والأوسط "ليبيا"، كما ربط بينها وبين بلاد جنوب الصحراء خاصة مالي، وغانا، وبلاد السودان الغربي. بالإضافة إلى الطريق البري كان بعض الحجاج المغاربة يفضلون ركوب البحر للوصول إلى مصر، وكانت الرحلة البحرية تستغرق شهرًا من المغرب إلى الإسكندرية. لطفي ميلاد: قافلة الحج المغربي: تحولاتها وأبعادها خلال القرون الأخيرة في العصر الوسيط، مجلة بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ٢٠١٠، ص ١٢٣. بمقارنة الباحثة لخط سير رحلة الركب الفاسي في القرن الثامن عشر، بالرحلات السابقة عليه زمنيًا، كرحلة العبدري (ت بعد ٧٠٠هـ)التي تمت خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، اتضح أن خط سير رحلة العبدري – تقريبًا- في القرن الثالث عشر هو نفسه خط سير رحلة الركب الفاسي في القرن الثامن عشر، وعن تقسيم وتفصيل مراحل الطريق يقول رحالة من القرن الثامن عشر هو ابن الطيب الفاسي (ت١١٧١هـ): " وتقسيم العبدري جار على اصطلاح وقته، وهذا التقسيم هو الجارى على اصطلاح زماننا هذا). يصف العبدري خط السير بأنهم أخذوا طريق القوافل إلى تلمسان، فباجة، ثم تونس، وهي المحطة الرئيسة الثانية في الطريق بعد تلمسان، وبعدها خرج الركب للقيروان ليصل إلى قابس، ثم إلى برقة وطرابلس. انظر، العبدري، أبى عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري (ت بعد ٧٠٠هـ): رحلة العبدري، المسماة الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم: علي إبراهيم كردي، الطبعة الثانية، دار سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٥، بداية الرحلة ص ٤٠ وما بعدها.

التي تقع على عدوة وادي سبو من العدوة الشرقية، وجرت العادة بنزول ركب الحجيج بها يوم انفصاله عن فاس، انتظارًا لاجتماع بقية الركب [١].

ومن ولجة العسال يتجه الركب صوب (تلمسان) [٢]، التي كانت إحدى أهم محطاته، حيث كانت مركز يجتمع فيها الحجيج للالتحاق بالركب الفاسي، ومنها إلى (بجاية) [٣]، ثم قسنطينة [٤]

---

(١) ابن زيدان، عبد الرحمن بن محمد السجلماسي (ت ١٣٦٥هـ): إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء الثالث، تحقيق: على عمر، الطبعة الأولى، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٢٨.

(٢) تلمسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة، وبعضهم يقول تنمسان بالنون عوض اللام ثانى أهم مدن الجهة الغربية بالجزائر بعد وهران. تتربع المدينة على هضبة، تتخللها أشجار الزيتون والكروم، بينها وبين وهران مرحلة، أما وهران فمدينة تقع على ساحل البحر بينها وبين تلمسان١٤٠ ميلًا. الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ص ٤٤. الحسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف أفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة: محمد حجي، محمد الأخضر، الطبعة الثانية، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٨٣،ص١٠.

(٣) بجاية: مدينة عتيقة بتونس تقع على منحدر جبل شاهق على ساحل البحر المتوسط، تمتاز بدورها وجوامعها الجميلة، ومدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم، بالإضافة إلى زوايا المتصوفة والحمامات، والفنادق والمارستانات. نفس المصدر، ص ٥٠.

(٤) قسنطينة: مدينة قديمة تقع على جبل شاهق، محاطة من الجنوب بصخور عالية، كانت تسمى بالحصن الأفريقي، لها طريقين يؤديان إليها، هما: سيدي راشد في الجهة الغربية، والمعروف بباب الجابية، وباب القنطرة في الجهة الشرقية. أحمد بن المبارك بن العطار (١٧٩٠- ١٨٧٠): تاريخ بلد قسنطينة، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد الله حمادي، دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص ٣٠. وقد وصفها الورثيلاني (ت ١١٩٣هـ) صاحب رحلة نِحلة اللبيب، والذي حل بها عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م، بأنها بها كثير من الدراويش، وفيها مساجد للجمعة، نحو خمسة، لا تخلو من العلم، غير أن تدريسه يكون في بعض الأوقات كالشتاء وأوائل الربيع. الحسين بن محمد الورثيلاني: الرحلة الورثيلانية، الموسمة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص١٣٠.

فباجة[١]، وصولًا إلى (سوسة) [٢] فى تونس فصفاقس[٣] فقابس[٤] ثم (برقة)[٥]، وأخيرًا (طرابلس الغرب) [٦]. وعادة ما كانت قوافل حجيج المدن الصحراوية، والمغرب الأوسط الأوسط وإفريقية وطرابلس تنضم للركب الفاسي، ليتجمع الركب فى قابس أو طرابلس الغرب،

(١) باجة: هي بلد بإفريقية (شمال تونس)، تعرف بباجة القمح، لكثرة حنطتها، وهي مدينة كثيرة الأنهار، وأرضها سمراء مشققة، تجود فيها جميع الزروع، وحولها بساتين عظيمة. الحموي: المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٤.

(٢) سوسة: مدينة ساحلية كبيرة عتيقة، يحيط بها أسوار جميلة، والمدينة نفسها أنيقة، وموقعها حسن. أهل سوسة مهذبون آدميون، يقبلون الغريب بحفاوة، وجلهم بحارة في السفن التجارية الذاهبة إلى الشرق أو إلى تركيا. الوزان: مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

(٣) صفاقس: مدينة عتيقة على ساحل البحر المتوسط، وهي مدينة كبيرة محاطة بأسوار عالية، ومعظم الصفاقسيين نساجون وبحارون وصيادون، يذهب بعضهم بسفنهم ليتجروا في مصر وتركيا. نفس المصدر،ص ٨٧.

(٤) قابس: مدينة كبيرة جدًا على ساحل البحر المتوسط، تحيط بها أسوار عالية كبيرة، ويجرى جدول ماء صغير قرب المدينة. نفس المصدر، ص ٩١.

(٥) برقة: بفتح أوله والقاف: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، والمسافة بين الإسكندرية وبرقة مسيرة شهر. الحموي: المجلد الأول، مصدر سبق ذكره، ص٣٨٨.

(٦) طرابلس الغرب: بلدة تقع بسواحل إفريقية الشمالية، تقع في سهل رملي مغروس بنخل، يحدها من من الجنوب الصحراء الكبرى، وشرقًا الحدود المصرية، وشمالًا البحر الرومى (المتوسط)، وغربًا تونس. وبخارج البلد محارس قديمة، ومساجد كثيرة مشهورة بالبركة والفضل، وأسواقها منسقة مفصول بعضها عن بعض بحسب الحرفة، وليس بها سقايات ولا آبار، وإنما فيها خزانات، سكانها يتعاطون التجارة بكثرة، لأن المدينة قريبة من نوميديا وتونس دون أن توجد مدينة غيرها حتى الإسكندرية. أحمد النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، ليبيا، ص ٧. الورثيلاني: مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٠. الوزان: مصدر سبق ذكره، ص ٩٧، ٩٨.

حيث كانا مركزا تموين، ومحطة استراحة بالنسبة لكافة حجيج المغرب، ومن طرابلس يتجه الركب صوب مصر [١].

كان الركب الفاسي يصل إلى القاهرة خلال النصف الثانى من شهر رمضان، أى بعد حوالي ثلاثة أشهر من خروجه من فاس. وتعد المرحلة الأخيرة من الرحلة قبل دخول الركب لمصر من أصعب المراحل [٢]، حيث يشق الركب طريقه فى مناطق صحراوية، تندر بها المياه، وإن وجدت فقليل آجن، فكان وصول الركب إلى مصر بمثابة الراحة من بعد تعب الرحلة الطويل [٣].

يصف العالم والرحالة المغربي العياشي (ت ١٠٩٠هـ) هذه المرحلة [٤]، قائلًا:" نزلنا

(١) ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس، ص ٢٨.

(٢) يونان لبيب رزق، محمد مزين: مرجع سبق ذكره، ص ٣٦.

(٣) العياشي، عبد الله بن محمد بن أبى بكر (ت ١٠٩٠هـ): رحلة العياشي الحجية الصغرى، الموسومة بـ: تعداد المنازل الحجازية أو التعريف والإيجاز ببعض ما تدعو الضرورة إليه فى طريق الحجاز،١٦٥٨م / ١٠٦٨ هـ، تحقيق: عبد الله حمادي الإدريسى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣، ص ٧٩.

(٤) أبى سالم عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشي (ت ١٠٩٠هـ): من العلماء المغاربة الذين جمعوا بين علوم الظاهر والتصوف. كان مولعًا بالرحلة للشرق لأداء فريضة الحج والاستفادة من أهل العلم والتصوف، وقد سجل له التاريخ ثلاث رحلات حجية، الرحلة الأولى عام ١٠٥٩هـ/١٦٤٩م، الرحلة الثانية عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٤م، الرحلة الثالثة والأخيرة التي كان مبدؤها عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م، ومنتهاها عام ١٠٧٤هـ/ ١٦٦٤م، وهي المعروفة بماء الموائد. وقد جاور في الحرمين، وفي القدس والخليل. أسند إليه التدريس والإفتاء بفاس. تعتبر رحلة العياشي مصدرًا لكثير ممن جاء بعده من الرحالة المغاربة، يكاد رحالة القرن الثامن عشر أن ينقلوا منها نصًا وبالصفحات، فلم يتغير الكثير مما وصف العياشي وسجل، لذلك وصف بأنه إمام المرتحلين في زمانه. نفس المصدر، ص ١٠.

خارج (إنبابة)[١] ضحى يوم الخامس والعشرين من رمضان، الموفى خمسين يومًا من يوم خروجنا من بلد سيدي أحمد زروق آخر العمران من طرابلس، ولم تكن هذه المدة كلها مشيًا بل منها نحو الخمسة أيام إقامة، وخلص للممشى خمسة وأربعون يومًا من مسراتة إلى مصر. ولما نزلنا بأنبابة تسارع الناس لشراء الفاكهة واللحم وطعام الحاضرة لبعد عهدهم بذلك" [٢].

وإذا انتقلنا لرؤية مشهد وصول الركب الفاسي لمصر بعيون عالم ورحالة مغربي من رحالة القرن الثامن عشر فسنجد الشيخ ابن ناصر الدرعي (ت ١١٢٩هـ) صاحب كتاب (الرحلة الناصرية)، يصف فرح وسرور ركب الحاج المغربي بانتهاء معاناة الطريق بعد دخول مصر، قائلًا:" ووجدنا أرض مخصبة، أحدق الزرع والبرسيم وسائر أنواع المزارع بقرى

(١) أنبابة أو" أمبابة " هى مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكائل، وهي فى الجانب الغربي فى مقابلة مدينة بولاق بالجانب الشرقى. نفس المصدر، ص ٧٩. الجدير بالذكر، أن الباحثة قد استعانت في غير موضع برحلة العياشي بالرغم من أن رحلاته الحجازية كانت بعد منتصف القرن السابع عشر، أولًا، لقرب العهد بين رحلات العياشي والضابط الزمنى للبحث، واستمرارية كثير من الأمور على حالها كما يتضح فيما جاء في كتب الرحلات الحجازية في القرن الثامن عشر من نفس الوصف لمصاعب الطريق ومسار الرحلة، ثانيًا، للدلالة على تشابه رؤية الرحالة المغاربة لأمور بعينها في مصر، ورصد تشابه مشاعرهم حين وصولهم لأعتاب مصر، بعد عناء الطريق، وسوف يظهر ذلك في المواضع التي استشهدت بها الباحثة برحلة العياشي ثم ألحقتها برحلة الشيخ ابن ناصر الدرعي ورحلة الحضيكي، وهما من رحالة القرن الثامن عشر، ثالثًا، لأن بعض الرحلات الحجازية السابقة على القرن الثامن عشر تم الاستشهاد بها كثيرًا في رحلات القرن الثامن عشر، سواء للموافقة أو المعارضة لمشاهدات وأمور تعرض لها صاحب الرحلة في مصر، وهو ما أرادت الباحثة بيانه وتوضيحه.

(٢) العياشي، المصدر السابق، ص ٢٢٠.

الريف، فصارت كأنها فدان واحد. وبتنا في أرغد عيش، واشترى الحجاج ما أرادوه من أنواع المطاعم الريفية وتنعموا. وزال ما بهم العياء، وألقت إليهم المسرة بمقاليدها" (١).

ويصف الشيخ الفقيه أبى عبد الله الحضيكي (ت ١١٨٩هـ) وصول ركب الحاج المغربي لمصر، ومشاعر الحجيج لدى رؤيتهم لماء النيل بعد ما قاسوه من عطش قائلًا: " ثم نزلنا ريف مصر، وقد قطع الركب برقة في نيف وخمسين يومًا فى شدة البرد، وكثرة السرى والسهر، فلما أشرف الناس على مصر، ورأوا النيل، ونظروا إلى خضرة الأجنة والبساتين تهللت وجوههم بالسرور، ونسوا ما قاسوه وكابدوه من المشقة والسهور، وأزهرت ذات الصدور، لما دنت إلى مواضع النبوءة والنور، وذهب ما أكنته من الأضغان والأحقاد، وتجلت شموسها فلا كدر ولا أنكاد، وبرئت الأجساد من الأوجاع والأسقام، لما بلغت مواطن الاستراحة والاستقامة: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} فلله الحمد" (٢).

انفعل الرحالة المغاربة عند دخولهم مصر بما شاهدوه من آثار ظاهرة، لا سيما الأهرامات وظهر هذا واضحًا فيما كتبوه عن مصر، وأطالوا في نقل الأشعار التي أنشدت في الأهرامات، ونبهت عن أصل وصفها وبانيها، ومنها ما جاء في رحلة ابن الطيب محمد بن

(١) كانت بداية الرحلة الناصرية كانت يوم الخميس ٢٤ جمادى الأولى ١١٢١هـ/ ٢١ يوليو ١٧٠٩، وتاريخ العودة تم يوم الخميس ٦ رمضان ١١٢٢هـ/ ١٩ أكتوبر ١٧١٠م. وقد استغرقت الرحلة في مجموعها خمسة عشر شهرًا وستة أيام. أبو العباس، أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت ١١٢٩هـ): الرحلة الناصرية ١٧٠٩- ١٧١٠، حققها وقدم لها: عبد الحفيظ ملوكي، الطبعة الأولي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبى، ٢٠١١، ص٢٥٦.

(٢) الحضيكي، أبى عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي السوسي(ت١١٨٩هـ): الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق: عبدالعالى لمدبر، الطبعة الأولى، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص٩١.

موسى الفاسي(ت١١٧١هـ) [١]، صاحب كتاب رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة، حيث وصف الأهرامات قائلًا:" وارتحلنا يوم الخميس فظللنا قبالة الأهرام التي رمت الدهر بالمشيب، وأشرفته على الأهرام، ولله أي غريبة وعجيبة في صنعة الأهرام للألباب، وسرنا متياسرين عن الأهرام حتى آن العصر، وبتنا بين أرياف مصر، وورد علينا ناس كثيرون من مصر بأنواع القثاء، والبطيخ وغير ذلك من الخضر، وجاءونا بجميع أنواع الخضر، واستقينا من ماء النيل العذب الزلازل، وبتنا منعمين في أنواع الخيرات التي لا جزاء لها إلا إدامة الشكر، ولم يزل الناس في أرغد عيش شبعًا وريًا، وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذي هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة، وأثر بركته ظاهرة للعيان فى مائه، وترابه، وقراه، ومدنه، بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصبًا مع اتصال العمارة نحو الشهر من هذه"[٢].

أما فيما يخص أماكن الإقامة، فقد اختلف الحجاج المغاربة فى اختيار أماكن إقامتهم بمصر، بعضهم كان يفضل المكوث بجوار الأزهر الشريف، ولا يعدلون بقربه مكانًا، وخاصة

(١) محمد الطيب عرف بابن محمد بن موسى الفاسي المعرف بالشرقي(ت١١٧١هـ)، والشرقي نسبة إلى شراقة، وهي على مرحلة من فاس. هو الشيخ الامام المحدث المسند اللغوي، نزيل المدينة المنورة. كان من أئمة أهل اللغة في وقته، محققًا متضلعًا في كثير من العلوم. ولد بفاس سنة ١١١٠هـ ونشأ بها، كان واسع الإطلاع، وله من الشيوخ ما يقارب المائة وثمانين شيخًا، وله شيوخ بالمشرق، رحل إلى الشرق للحج، وأقام بمكة سنين، وانتفعت منه الطلبة هناك، ثم رجع إلى مصر، وأخذ عنه في مصر خلق كثيرون، من مؤلفاته: حاشية على القاموس، وكتاب (المسلسلات) في الحديث، والرحلة الحجازية الأولى والثانية. وقد أدى حجته التي ألف عنها سنة ١١٣٩هـ. خير الدين الزركلي: الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء السابع، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٩، ص ٤٧.

(٢) محمد الطيب عرف بابن محمد بن موسى الفاسي المعرف بالشرقي(ت١١٧١هـ): رحلة ابن الطيب من فاس إلى مكة المكرمة، تحقيق: عارف أحمد عبد الغنى، دار العراب للدراسات والنشر والترجمة، دمشق، ٢٠١٤، ص ١٤٢.

طلاب العلم، أما أكثرية المغاربة فكانوا يفضلون النزول بالقرب من مسجد (أحمد بن طولون) ليكونوا بالقرب من (الرملة) وهى محل سوق الدواب بالقاهرة، وفيها ما يحتاج إليه الحاج من أمور السفر، خاصة أنه كان بخارج المسجد زيادات كثيرة، كان الحجاج المغاربة ينزلون فيها بإبلهم وأخبيتهم أيام الإقامة بمصر، خاصة رقيقى الحال الذين لا يقدرون على كراء منازل فى القاهرة [١]، أما من كان ذا تجارة فينزل بالوكائل، مثل وكالة الغورى وغيرها، ولم يكن يعيبها إلا ضيق أماكن السكنى فيها[٢].

ثالثاً- مصر فى علاقة سلاطين المغرب بركب الحاج المغربي.

كان لركب الحاج المغربي مهام سياسية، بالإضافة لمقاصده الدينية والعلمية، تتمثل فى إظهار المغرب على النحو الذى ينبغى أن يظهر به كدولة قوية مستقلة [٣]، كما استخدمه سلاطين المغرب استخدامًا دبلوماسيًا، تمثل فى تزويد أمراء الركب أحيانًا برسائل تسلم إلى أشراف الحجاز للتباحث فى الأمور المهمة، أو توصيتهم بتيسير أمور حجاج المغرب، لذلك حظى ركب الحج على دعم سلاطين الدولة العلوية المادي والمعنوي، والمتمثل فى بذل الأموال، وحفر الآبار، ووقف الأوقاف على الإبل المخصصة لهذا الركب، وكثيرًا ما كان السلطان يخرج بنفسه لتشييع الركب [٤].

(١) الزياني (ت ١٢٤٩هـ)، أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم: الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمورة برًا وبحرًا ١١٤٧- ١٢٤٩هـ/ ١٧٣٤- ١٨٣٣م، حققه وعلق عليه: عبد الكريم الفيلالى، الطبعة الثانية، دار نشر المعرفة للتوزيع والنشر، الرباط، ١٩٩١، ص ٢٠٨.

(٢) استمرت الوكائل التجارية في القرن الثامن عشر كما القرن السابع عشر مكانًا مفضلًا يأوى إليه التجار من ركب الحج المغربي. الرحلة الناصرية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٧.

(٣) عبدالهادى التازى: أمير مغربى فى طرابلس ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م، أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقى، د.ت، ص ١١٥.

(٤) عواطف بنت محمد يوسف نواب: مرجع سبق ذكره، ص ٢٩.

كان سلاطين المغرب يحرصون على توزيع الهدايا النقدية طوال الطريق حتى مكة المكرمة، كما كانوا يصلون علماء المشرق بالصلات المالية، في مناسبات مختلفة، من استفتاء، أو تعلم، أو في مواسم بعينها، مثل موسم الحج، حيث كان العلماء باعتبارهم ذوي رأي متّبع سندًا ثابتًا ومهمًا للشرعية السلطانية، كما كانوا دُعاة فعّالين ينشرون خصال السلطان ونسبه الشريف وأفعاله في خطبهم وفي حلقاتهم العلمية ومصنّفاتهم، لهذا نجد الكثير من سلاطين المغرب، لهم اهتمام وصلات مستمرة مع علماء المشرق، تم استثمارها لتأكيد شرعيتهم، وإبراز وترسيخ صورة السلطان الورع، خليفة المسلمين ذو النسب الشريف في أذهان الناس مشرقًا ومغربًا معًا [١].

كان خطاب الشرعية السلطانية يهدف إلى أن يكون في نفس الوقت أداة تنظيم ودمج بحيث يستطيع أعضاء النخبة ولاسيما الفقهاء والصّلحاء أن يستوعبوه ويتقبلوه بسهولة، مما يسّهل نشره بين عامة الناس، ولتحقيق- هذا الغرض - كان لابد من إنتاج ترسانة من المفاهيم والرموز والصور تجعل من المشروع السلطاني العلوي وريث القرون الإسلامية الأولى أو ما يصطلح عليه بعهد السلف الصالح الذي يعتبر خير العهود في المخيلة الإسلامية، وكان من ضمن خطط تكريس هذه الصورة مراعاة العلماء والاتصال بهم، لاسيما المشارقة منهم [٢].

(١) كانت الصلات بين سلاطين المغرب وعلماء المشرق تأتى من جانب آخر في إطار المنافسة السياسية مع العثمانيين المسيطرين على المشرق، وانعكاساتها المختلفة، في إطار تأكيد دورهم كأمراء للمؤمنين، واستحقاقهم لذلك بحكم نسبهم الشريف. محمد نبيل ملين: السلطان الشريف: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، جامعة محمد الخامس، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ٢٠١٣، ص٥٣.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

كان السلطان المولى إسماعيل (١٠٨٢- ١١٣٩هـ/ ١٦٧٢- ١٧٢٧م) [١] يبعث سنوياً للسادات (البكريين) بمصر عشر سبائك من الذهب، واقتفى أثره فى هذا العمل أبناؤه، خاصة السلطان المولى عبد الله بن إسماعيل (١١٤١- ١١٧١هـ/ ١٧٢٩- ١٧٥٧م) [٢] الذي زاد على ذلك زيادة كبيرة، وبعث مع والدته في رحلتها للحج مائة ألف دينار لتوزيعها على علماء وأهالي البلاد التى ستمر بها، إضافة إلى وقفه أوقاف بمصر للصرف على طلبة العلم[٣].

(١) السلطان أبا النصر إسماعيل بن الشريف الحسني العلوي (١٠٨٢- ١١٣٩هـ/ ١٦٧٢- ١٧٢٧م)، بويع له بفاس بعد وفاة أخيه الرشيد. يصفه مؤرخ الدولة العلوية عبد الرحمن بن زيدان، بأنه نهض بأعباء الخلافة وأحسن السيرة وضبط الأمور، وتمهدت له البلاد، ودان له قريبها وبعيدها. يرجع إليه الفضل في إرساء معالم الدولة الحديثة بالمغرب الأقصى، حيث اهتمَّ بالعمارة وتشييد القصور والحدائق والمدارس، كما اهتمَّ بوقف الأوقاف، وكان يقدر العلم ويعلى من شأن العلماء، يصفه معاصروه بأنه من أعظم الساسة في عصره، أمنت البلاد والعباد فى عهده بما لم يتقدم فى أيام غيره من الملوك. وفي عهده تم تحرير الكثير من الثغور المغربية من الاحتلال الأجنبي، حيث استطاع أن يسترجع (المعمورة) من إسبانيا عام ١٠٩٢هـ/ ١٦٨١م، ويحرر (طنجة) من سيطرة بريطانيا عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩م. لمزيد من المعلومات انظر، عبد الرحمن بن زيدان: المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف، تقديم وتحقيق: عبدالهادى التازي، الطبعة الأولى، مطبعة إذيال، الدار البيضاء، ١٩٩٣، ص٤٦. عبد الرحمن بن زيدان: الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٣٧، ص ٢٩.

(٢) السلطان عبد الله بن إسماعيل، بويع له في فاس عام ١١٤١هـ/ ١٧٢٩م، وتوفى بفاس عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م، كان له حزم وعزم وقوة. تمكن من الاحتفاظ بالعرش بالرغم من الثورات التي قامت ضده، وجددت بيعته مرارًا. شهدت فترة حكمه الكثير من الاضطرابات الداخلية. نفس المصدر، ص ٥٢.

(٣) محمد المنونى: مرجع سبق ذكره، ص٢٣.

وبعد المولى عبد الله جاء دور ولده السلطان المولى محمد بن عبد الله [١]، الذي كان واسطة العقد فى هذا الميدان، وكثيراً ما زاد فى الهدايا لأهل البلاد التى يمر بها ركب الحاج فى طريقه للأراضى المقدسة [٢].

كان ركب الحاج المغربي يجد ترحيبًا كبيرًا فى مصر، وكثيرًا ما صاحبت بعض حجاته احتفالات ضخمة، خلدت صداه فى كثير من الجهات، مثل ركب الحاج الذي كانت فيه الأميرة (خناثة بنت بكار المغافرية الشنقيطية) [٣] وحفيدها الأمير (محمد بن عبد الله). قام

(١) محمد بن عبد الله بن إسماعيل، ولد فى مدينة مكناس سنة ١١٣٤هـ/ ١٧٢١م، بويع له فى فاس عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م، توفى عام ١٧٩٠م. وجهت إليه منذ صغره عناية خاصة من جدته الأميرة خناثة بنت بكار، التى أصبح الأمير الصغير محط رعايتها واهتمامها، وقد اصطحبته معها في رحلتها الحجية التي قامت بها عام ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م، وكان لهذه الرحلة أثر كبير فى حياته، خاصة بعد توليه الحكم، حيث كان اهتمامه بهذه الديار كبيرًا، ظهر ذلك فى إرسال أبنائه للحج، على رأس بعثات سياسية، للتباحث مع شرفاء مكة. تولى الحكم وهو فى الخامسة والعشرين من العمر خلفًا لوالده، ويُعد من أعظم ملوك الدولة العلوية، ازدهرت أيامه بالعلم والعلماء، كما ازدهرت بالعمران والرخاء والاستقرار، والاصلاحات القضائية والاقتصادية. لمزيد من المعلومات انظر، عبد الرحمن بن زيدان: الدرر الفاخرة، ص ٥٥. الزياني: الترجمانة الكبرى،ص١٣.

(٢) يونان لبيب رزق، محمد مزين: مرجع سبق ذكره، ص ١١٨.

(٣) خناثة بنت بكار بن على بن عبد الله المغافري: هى الفقيهة، العالمة، الأديبة، الأميرة (خناثة بنت الشيخ بكار المغافري الشنقيطي)، زوج السلطان (إسماعيل بن الشريف)، وأم السلطان (عبد الله بن إسماعيل)، وجدة السلطان (محمد بن عبد الله). كانت الأميرة خناثة من العالمات اللائي أسهمن في حياة المغرب الثقافية، فقد كانت حافظة للقرآن بقراءاته، وعالمة بالحديث. كانت محل ثقة المولى إسماعيل، وكان لها رأى وتدبير مع زوجها السلطان، تتوسط في حوائج الناس، ويقصد بابها ذوو الحاجات، وكانت في ذلك ركنًا من الأركان، كما كان لها أدوارًا سياسية إبان الفترة التي حكم فيها ابنها السلطان عبد الله، توفيت بفاس في جمادي الأولى عام ١١٥٩هـ، ودفنت بروضة الأشراف. لمزيد من المعلومات انظر، عبد السلام بن محمد بن عبد الله العلوي (ت ١٢٢٧ هـ): درة السلوك وريحانة العلماء والملوك، دراسة وتحقيق: نبيلة حمدون، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ١٤٣٨هـ /٢٠١٤م، ص ٢٦. ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس،ص ٢٦.

بمصاحبة الركب وتسجيل الرحلة الوزير (أبى محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي) [١]. خرجت السيدة (خناثة بنت بكار) مع حفيدها الصغير (محمد بن عبد الله) من مدينة مكناس عاصمة المغرب -آنذاك- متوجهة إلى فاس في انتظار تحرك ركب الحاج نحو البقاع المقدسة، في يوم الجمعة الحادي عشر من جمادي الثاني سنة ثلاث وأربعين ومئة ألف هجرية (١٧٣١م)، بعد صلاة الجمعة، وافق هذا التاريخ السنة الرابعة من إمارة ولدها السلطان المولى عبد الله [٢].

---

(١) أبو محمد سيدي الشرقي ابن محمد الإسحاقي، تختلف المصادر في ضبط اسمه، وكذا في تحديد تاريخ وفاته. والثابت من خلال رحلته، التي تعد الأثر الفكري الفريد للإسحاقي، هذا الاسم الذى عرفناه به، بينما تمت الإشارة إليه في وثيقة تحبيس المجلد الذى كتبت فيه الرحلة على جامع القرويين المرفقة بنص الرحلة، بسيدي الشرقي الإسحاقي، كما ثبت هذا الاسم في الإجازات العلمية التي حصل عليها من علماء المشرق، وفى مقدمتهم الشيخ محمد بن أحمد عقيلة، الذى أجازه بالحديث المسلسل، وفى الإجازة سماه بمحمد الشرقي الإسحاقي، أما الشيخ محمد الطبري إمام المقام الخليلي، فقد سماه في إجازته بمحمد الشرقي ابن محمد الإسحاقي المغربي المالكي. محمد البغيال: صورة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي في رحلة الوزير الإسحاقي، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٧٢. خدم الإسحاقي في سلك المخزن، حيث تولى خطة الكتابة والوزارة في عهد المولى إسماعيل، وكذلك في عهد ابنه المولى عبد الله، وهي من المناصب التي اختص بها العلماء. كان الإسحاقي متبحرًا فى علوم اللغة والفقه والحديث والسيرة النبوية والتاريخ والأنساب، فضلًا عن ميوله الأدبية، وهو ما انعكس على الأسلوب الذي صاغ به رحلته للشرق. انظر، الإسحاقي، أبي محمد سيدي الشرقي ابن محمد الإسحاقي (ت بعد ١١٥٠هـ): رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية، دراسة وتحقيق: محمد البغيال، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، ٢٠١٤، ص ١٧٧.

(٢) عبد السلام بن محمد بن عبد الله العلوي: درة السلوك، ص ٤٣.

كان وفد الأميرة (خناثة) يتكون من عدد من رجال الدولة في المغرب، على رأسهم قائد الركب الفاسي السيد (عبد الخالق عديل)، باعتباره المكلف الرسمي بشؤون الحج من قبل السلطان، ومن الوزير الشرقي الإسحاقي، والغالب أنه كان مسؤولًا بتكليف من السلطان عن وضع تقرير كامل لهذه الرحلة، كما تألف الوفد أيضًا من ابن أخت الإسحاقي، الفقيه السيد العربي بن محمد، ومن القاضي السيد بلقاسم ابن الفقيه سعيد بلقاسم العميري، ومن الفقيه السيد أحمد المكودي [١].

تشير بعض المصادر أن رحلة الأميرة (خناثة) كان لها أهداف أبعد من الأهداف الدينية الأساسية، وأنها كانت عبارة عن وفادة رسمية تضم والدة السلطان ونجله مع نخبة من المسؤولين والعلماء، يتصدرهم الوزير الإسحاقي، خاصة أنها جاءت في ظروف سياسية حرجة للسلطان المولى (عبد الله)، الذي كان يسعى إلى تثبيت نفسه في الحكم وإثبات شرعيته، في مواجهة محاولات خلعه من قبل إخوته المتنافسين معه على العرش، إضافة إلى الثورات التي قامت ضده [٢].

ولعل ذلك ما حمل الباحثين على اعتبار أن رحلة الإسحاقي تتجاوز الأهداف الدينية، إلى تحقيق أهداف سياسية تتعلق بالبحث عن تأييد وتعضيد حكام وعلماء المشرق الإسلامي للمولى عبد الله في مواجهة خصومه، إلى جانب تأكيد السلطان سيطرته على

(١) محمد بن عبد العزيز الدباغ: نصوص وهوامش: رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي إلى الحجاز، مجلة العرب، المجلد ٢٠، العدد العاشر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٨٥، ص ٦٥٣.

(٢) مصطفى الغاشي: مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٥.

البلاد وشرعيته في رسالة موجهه للداخل والخارج معًا، من خلال أحد أهم الأدوات التى كانت ترمز إلى هذه الشرعية، وهي بعث ركب الحاج المغربي من مدينته التاريخية فاس [١].

تم استثمار ركب الحاج أيضًا لزيادة الروابط الاجتماعية بين سلاطين المغرب العلويين وأشراف الحجاز، ولما كانت مصر هى البلد التى تقع فى منتصف المسافة بين المغرب والحجاز، لذلك؛ لعبت دورًا كبيرًا فى تسهيل سبل التواصل بين البلدين، ففى عام ١١٨٢هـ زُفت مع ركب الحاج كريمتا السلطان (محمد بن عبد الله) [٢]، وهما، الأميرة (لالة لبابة) [٣]

(١) كان توقيت قيام الأميرة خناثة برحلتها الحجية بالغ الدلالة، ففي عام ١١٤١هـ، أعلن أهل فاس خلع بيعة ولدها المولى (عبد الله)، وعزموا على الحرب، ولما سمع السلطان بخبرهم تهيأ لغزوهم، وخرج من مكناسة في الخامس والعشرين من شوال ١١٤١هـ، ونزل على فاس، وأطلق يد جيشه لمحاربة أهلها، واستمر حصارها حتى عام ١١٤٢هـ، ولما اشتد الهرج، وانعدمت الأقوات بعث الناس إلى السلطان في الصلح، وتم الصلح بحضور جماعة من أشراف فاس وعلمائها مجلس السلطان، ثم ارتحل السلطان في العشرين من ربيع أول إلى مكناس بعد أن عين واليًا على المدينة، وفى نفس هذا العام هيأ بعث ولده وأمه إلى الحج. قد يكون هذا تأكيدًا لسيادته على المدينة الثائرة التي كانت مقر ركب الحاج المغربي الرسمي، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى استثمار الوفد المرافق لوالدته في الاتصال بحكام الشرق. لمزيد من المعلومات انظر، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، الجزء السابع، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص ١٣١.

(٢) كان السلطان محمد بن عبد الله كما قال صاحب الاستقصا يحب الفخر، ويعنى به، وله رغبة في توطيد مركزه وعلاقاته بأشراف مكة، لما لهم من شرف ونسب، بالمحل الذي أكرمهم الله له بلدًا ومحتدًا، لذلك انعقد الصهر بين السلطان محمد بن عبد الله وبين سلطان مكة الشريف سرور. الناصري: الاستقصا، الجزء الثامن، ص ٣٤. محمد المنوني: مرجع سبق ذكره، ص ٢٠.

(٣) لم تقف الباحثة – بعد بحث في عدد من المصادر– على ترجمة للأميرتين لالة لبابة ولالة حبيبة سوى أنهما كريمتا السلطان المولى محمد بن عبد الله، ويبدو أنهما لم يكن لهما أدوارًا سياسية كبعض البارزات من نساء المشرق والمغرب الإسلامي، ربما يعود ذلك للطبيعة المتحفظة للبيئة وما تفرضه من قواعد على النساء في شبه الجزيرة العربية، لاسيما فى قلب مدينتها المقدسة مكة المكرمة.

التى زفت للشريف (سرور بن مساعد) أمير مكة [١]، والأميرة (لالة حبيبة) التي زفت لإبن الشريف سرور [٢].

بعث السلطان مع العروس ولده الأكبر وخليفته المولى (على بن محمد)، ومعه شقيقه الصغير المولى (عبد السلام بن محمد) ليكونا في صحبة أختيهما، وكلاهما صحبة ركب الحج، ووجه معهما كثير من أبناء أمراء القبائل، ووجوه المغرب، وأعيان رجاله، وجملة من خدامه بالخيول المسومة والسلاح الشاكي، فكان ركبًا باذخًا تحدث به أهل مصر طويلًا. وقد أرسل السلطان مع الأميرين هدية لأمير طرابلس، وهدية لحكام مصر، كما أرسل هدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين، ومالاً كثيرًا يفرق على العلماء بكل من مصر والحجاز [٣].

(١) الشريف سرور: هو سرور بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن بن حسين بن أبى نمي الأصغر الحسني الهاشمي القرشي، تولى إمارة مكة المكرمة وعمره ثمانى عشرة سنة. استطاع الشريف سرور أن ينظم أمور الحجاج الداخلية والخارجية، كما نظم أمور القبائل، وضرب على أيدي العابثين. وكان يميل إلى العمران، وله مشاريع عمرانية في مكة المكرمة. وظل سرور على أمره في مكة الى أن توفي في ١٨ ربيع الثاني في سنة ١٢٠٢هـ، عن عمر لم يتجاوز خمس وثلاثين عامًا، بعد أن حكم مكة نحو خمس عشرة سنة ونصف السنة. لمزيد من المعلومات انظر، أحمد بن زيني دحلان: تاريخ أشراف الحجاز، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، الطبعة الأولى، تحقيق: محمد أمين توفيق، دار الساقي، ١٩٩٣، ص ٢١٨. عارف عبدالغنى: تاريخ أمراء مكة المكرمة من ٨هـ إلى ١٣٤٤هـ، الطبعة الأولى، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٨١٥.

(٢) لم تقف الباحثة على ترجمة لإبن الشريف سرور الذي تزوج الأميرة لالة حبيبة، رغم أن المصادر المغربية – التي عاينتها الباحثة– أفصحت عن اسم زوجه إلا أنها صمتت عن اسمه، واكتفت بالإشارة إليه على أنه ابن الشريف سرور، والراجح أنه الشريف يحيى بن سرور الابن الأكبر للشريف سرور. الناصري: الاستقصا، الجزء الثامن، ص ٣٤.

(٣) محمد المنوني: مرجع سبق ذكره، ص ٢٠. عبدالهادى التازى: أمير مغربي فى طرابلس، ص ١٩.

كان السلطان (محمد بن عبد الله) مهتمًا باستمرار صلته مع علماء الأزهر، من خلال الصلات التي كان يرسلها مع ركب الحج سنويًا لعلماء الأزهر، وخاصة شيوخ المالكية بمصر، ففى ركب عام ١١٩٧هـ بعث للشيخ (الدردير)[١] رئيس المالكية بمصر ولباقى علماء مصر سبعمائة دينار ذهبًا، وكان للسلطان ولد تخلف بعد حج الموسم الماضي، وأقام بمصر مدة حتى نفــد ما عنده من النفقة، فلما وصلت تلك الأموال أراد أخذها ممن هى فى يده فامتنعوا عليه، وشاع الخبر، وحين ذهبوا للشيخ بحصته سأل عن قضية ابن السلطان فأخبروه عنها، فقال الشيخ: والله هذا لايجوز، وكيف أننا نتفكه فى مال الرجل؟ وولده يتلظى من العدم، وهو أولى منى وأحق، لذلك أعطاه الشيخ نصيبه، فلما رجع رسول السلطان وأخبره بما فعل الشيخ الدردير شكره على فعله، وأثنى عليه وأرسل له فى العام التالى عشرة أمثال الصلة المتقدمة، فقبلها الشيخ وحج منها، ولما رجع من الحج بنى زاوية مما بقى منها[٢].

وفى ركب عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م أرسل السلطان مع ولده الأمير (عبد السلام) هدية مكونة من سبعين سبيكة ذهبية، أصحبها بقائمة وزعت بمقتضاها على جهات بعينها فى مصر والحجاز [٣]، أما من وزعت عليهم هدايا بمصر فكانوا من علماء القاهرة

(١) الشيخ الدردير: هو، أحمد بن محمد بن أحمد بن أبى حامد العدوي المالكي الأزهري الخلوتي الشهير بالدردير، ولد سنة ١١٢٧هـ فى بنى عدى، حفظ القرآن، وحبب إليه طلب العلم، فورد الأزهر الشريف، وأفتى فى حياة شيوخه، وله مؤلفات منها شرح مختصر خليل، وأقرب المسالك لمذهب مالك، ورسالة فى متشابهات القرآن، يصفه الجبرتى بأنه سليم الباطن، مهذب النفس، كريم الأخلاق، العالم العلامة، أوحد وقته فى الفنون العقلية والنقلية، شيخ أهل الإسلام. الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الجزء الثاني، المطبعة العامرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ، ص١٥٨.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) محمد المنوني: مرجع سبق ذكره، ص٢٤.

والأسكندرية، إضافة إلى طلبة القرآن بهما، وسائر طلبة أروقة الأزهر [١]. في الواقع، حظى علماء الأزهر بتقدير واحترام سلاطين المغرب، وتمتعوا بمكانة خاصة لديهم، والدلائل على ذلك كثيرة، منها، ما جرى عام ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م حين قرر السلطان (محمد بن عبد الله) إعادة تنظيم جامع القرويين، فما أن بدأ بالتنفيذ حتى أرسل إلى علماء الأزهر خطة مكتوبة بالأمور التى يراها، ويطلب منهم الرأى[٢]، قائلًا:" نريد منكم أن تطالعوا مسائل أخرى مذكورة فى هذا الدفتر، قد أمرنا قضاة المغرب أن يحكموا بها، فما كان منها على صواب أثبتوه واكتبوا عليه بخطوط أيديكم، وما كان منها على خطأ فاكتبوا عليه أيضًا بخطوطكم فى الدفتر المذكور لنرجع عنها" [٣].

رابعاً- ركب الحاج المغربي وأثره في ترسيخ الصلات العلمية بين مصر والمغرب.

لم تقتصر الرحلة الحجازية لدى المغاربة على أداء فريضة الحج، بل امتدت أهدافها لتشمل طلب العلم، بغرض التفقه فى الدين، وكانوا يعتبرون أن الرحلة لطلب العلم من دأب الصالحين، وشعار المتقين، يتلمسون قول الله تعالى: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } (المجادلة: الآية١١)، إضافة إلى الكثير من الأحاديث التى تحث على الغرض الجليل من طلب العلم، ورعاية الله لطلاب العلم، مما حبب الرحلة الحجازية للمغاربة، لقدسيتها الدينية والعلمية[٤].

(١) عبد الرحمن بن زيدان العلوي: العلائق السياسية للدولة العلوية، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٩، ص ٦٤.

(٢) يونان لبيب رزق، محمد مزيان: مرجع سبق ذكره، ص ١٠٤.

(٣) عبد الرحمن بن زيدان: الدرر الفاخرة، ص ٦٢.

(٤) عبدالهادى التازى: مكة فى مائة رحلة مغربية ورحلة، الجزء الأول، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، الرياض، ٢٠٠٥، ص ٢٥١.

كان من بين حجاج المغرب علماء نبهاء وضعوا العديد من المصنفات العلمية حول انطباعاتهم عن قيامهم بأداء رحلة الحج، دونوا فيها مشاهداتهم، وما حضروه من حلقات درس بالأزهر، وما حملوه عن شيوخهم بمصر، وما درسوه فى مجالسهم العلمية، وما اتصل به من أسانيدهم [(١)]. كان من الرحلات المبكرة لعلماء المغرب إلى مصر فى ركب الحج في مطلع القرن الثامن عشر رحلة العلامة الفقيه المالكي الشيخ أحمد بن محمد بن داود المنصوري الجزولي التملي الدرعي، يكنى أبا العباس، واشتهر بالهشتوكي (ت ١١٢٧هـ)[(٢)]، وله رحلتين حجازيتين، الثانية منهما جرت سنة ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، سماها (رحلة الملك العلام إلى بيت الله الحرام) [(٣)].

يذكر الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي(ت ١١٢٩هـ) [(٤)] في كتابه الرحلة الناصرية، الذي سجل فيه رحلته الرابعة للحج في ركب عام ١١٢١هـ/ ١٧٠٩م، أنه ممن

---

(١) عبد الهادي التازي: مكة في مائة رحلة مغربية، ص ٢٥١.

(٢) الهشتوكي، أحمد بن محمد بن داود بن يعزى بن يوسف الجزولي التملي. متصوف فقيه مالكي ممن نزل بدرعة (في صحراء المغرب) وأقام في الزاوية الناصرية، وتوفي بها. قال الحضيكي: كان يدور على صالحي سوس زمانًا طويلًا، وجمع من مناقبهم كتبا كثيرة، منها فهرسة سماها «قرى العجلان في إجازة بعض الأحبة والإخوان» و«التحفة» في النحو، كتابان مبسوط ومختصر، و«اللؤلؤ والمرجان في تحريم الدخان» أرجوزة. انظر، محمد بن أحمد الحضيكي: طبقات الحضيكي، الجزء الأولى، تقدسم وتحقيق: أحمد بومزكو، الطبعة الأولي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٦، ص ٨٣.

(٣) الرحلة موجودة بخطه في خزانة الرباط. الزركلي: الأعلام، الجزء الأول، ص ٢٤٠.

(٤) أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن حسين بن ناصر الدرعي، المغربي، المالكى الشاذلي، الأشعري، الصوفي، المدعو بالخليفة (١٠٥٧ - ١١٢٩هـ /١٦٤٧ - ١٧١٦م). شيخ الزاوية الناصرية. تربى في أحضان أسرة اشتهرت بالعلم والتصوف. كان الشيخ إمام وقته علمًا وعملًا، ملمًا بعلوم الفقه والكلام والحديث والتصوف. أدى تعلمه وسفره المبكر إلى المشرق، حيث سافر لأداء فريضة الحج مع والده في سن التاسعة عشرة، إلى تكوينه تكوينًا متعدد المشارب، وأكسبه حنكة وخبرة بالناس، مما انعكس على رؤيته للناس وأحوالهم، وطبيعة المجتمعات فيما كتب في رحلاته الحجازية. الرحلة الناصرية (١٧٠٩-١٧١٠م): مصدر سبق ذكره، ص ١٩.

اجتمع به من علماء مصر وسر بالاجتماع به، الأستاذ المقرئ الشيخ محمد البقري، وإليه انتهت يومئذ رئاسة علم القراءات بالديار المصرية، يقول الشيخ الدرعي عن هذا اللقاء:" أتيت داره، ففرح كثيرًا، وأظهر سرورًا، فهش وبش، وأمطر مزن محياه وطش، فاستأذنته في قراءة الفاتحة، فأذن بقراءتها، فلما بلغت (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قال: مده، قلت: يا سيدى إنما اقرأ لورش، وورش لا يمده، فقال: اقرأ لغير ورش أيضًا، فقلت: لا أحسن إلا قراءة ورش". وقد حصل الشيخ الدرعي على إجازة من الشيخ محمد البقري بأن يقرأ ويقرئ القرآن العظيم في أي مكان حل، وفي أي قطر حل [1].

يعد من أبرز العلماء المغاربة الذين زاروا مصر في القرن الثامن عشر من خلال ركب الحاج الفقيه أبى عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي (ت ١١٨٩هـ) [2] كان ذلك في ركب عام ١١٥٢هـ/ ١٧٤٠م، بغرض الحج وطلب العلم. أقام الحضيكي بمصر سنين للأخذ عن

(١) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص٢٩٤.

(٢) العلامة المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله الجزولي الحضيكي السوسي: هو الحضيكي الشهرة، الشاذلي الطريقة، ولد فى مدينة مدشر ترسواط، فى قبيلة أمانوز بسوس جنوب المغرب، نشأ فى حجر والده يلقنه مبادئ الدين، وحفظ القرآن الكريم، درس فى المدرسة الماسية بسوس، وتخرج منها. ارتحل للشرق فحج وزار، وله فهرسة ذكر فيها شيوخه وأسانيدهم وجهتهم. كان ورعًا وعالمًا، متبعًا للسنة، أخذ فى كل فن من فنون العلم بنصيب، بلغ الدرجة العليا فى علم اللغة، كما كان عارفًا بالتاريخ. توفى فى ليلة السبت من شهر رجب عام تسعة وثمانين ومئة ألف، ١١٨٩هـ الموافق سنة ١٧٧٥م. انظر، العباس بن إبراهيم السملالى: الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، الجزء السادس، الطبعة الثانية، المكتبة الملكية، الرباط، ٢٠٠١م، ١٤٢٢هـ، ص ٨٢. عبد الله مرابط الترغي: فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها- تطورها- قيمتها العلمية، جامعة عبد الملك السعدي، الطبعة الأولي، ١٩٩٩، ص ٤٠٩.

فطاحلها. وتعتبر الرحلة الحجازية من أجمل مؤلفاته، استهلها بتحديد الهدف من تأليفها، مصرحًا بأن المراد منها ذكر من لقيهم من العلماء فى الحضر والسفر [١].

عاد الحضيكي إلى مصر بعد الفراغ من مناسك الحج، وجاور بالأزهر بقصد الدراسة والتحصيل، ويقول فى وصفه للأزهر:" فياله من زهرة الدين ونضرته وقدره، وما نسينا حظ التعلم فيه والجوار". يعد من أبرز علماء مصر الذين أخذ عنهم الحضيكي، شيخ مشيخة الأزهر الشيخ أحمد بن أحمد العماوي الدمرداشي (ت ١١٥٥هـ) الذي تتلمذ عليه الحضيكي، وأخذ عنه الخزرجية فى علم العروض، وأصول الفقه لابن السبكي، والبردة للبوصيري، وأجازه بجميع مروياته [٢].

كما درس الحضيكي على يد الشيخ أبى الحسن على بن أحمد الصعيدي العدوي (ت ١١٨٩هـ)، وكان من حذاق الأزهر، حضر الحضيكي مجلسه فى خزرجية العروض، وحواشى الفقه ثم أجازه إجازة عامة، كما حضر مجلس الشيخ عمر بن على الطحلاوى المالكي المصري (ت١١٨١هـ) فى مسجد الحسين، وحضر أيضًا مجلس شيخ المالكية بالأزهر الشيخ أحمد بن مصطفى الإسكندرى (ت ١١٦٣هـ) وأخذ عنه: مختصر خليل، ومختصر الصحيح لإبن أبى حمزة، والجامع الصغير للسيوطى، وألفية ابن مالك، وقد أجازه بيده [٣].

ومثلما درس الحضيكي على يد أعلام المالكية بمصر – درس أيضًا – على يد أعلام الشافعية، أمثال، الإمام عبد الله بن محمد بن عامر الشبراوي الشافعي (ت ١١٧١هـ). أما علماء الحنفية فذكر الحضيكي أنه لم يكن لهم إذ ذاك بمصر إلا مجلس واحد فى الجامع

(1) محمد الفاسي: الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، العدد ١٦، يناير ١٩٥٩، ص٣٥.
(٢) الحضيكي: الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص٣٥.
(٣) نفس المصدر، ص ٢٣.

الأزهر، يُعقد وقت الضحى، وكذلك كان الحنابلة قليلون، ولهم فى الأزهر حلقة صغيرة، وجماعتهم قليلة، زهاء خمسة عشر إلى عشرين فرد [١].

يصف الحضيكي مجالس العلم بمصر فى ذاك الوقت بقوله:" أنه لا تزال طائفة من أهل العلم والدين فى مصر كما نص على ذلك إلى قرب الساعة، وقد شاهدنا ذلك عيانًا سنة ثلاث وخمسين ومائة ألف، وقد ضعف الطالب والمطلوب للعلم يومئذ فى المغرب، فلا ترى من يعتنى به، وأما جامع الأزهر هذا، فمشحون اليوم بالعلماء، وأهل الحق والدين، ومازالوا قائمين بوظائف التدريس، والعلم، والتحقيق، ويقصد هذا الجامع للعلم من اليمن، والحرمين الشريفين، والعراقين، والشام، والمغرب، وليس فى الدنيا بجميعها مثله". يذكر الحضيكي أن الأزهر كان يشتمل على نحو ثلاثين مجلسًا فى وقت واحد، ومن المشايخ من له خمسة دروس بين الليل والنهار [٢].

كان الأزهر المقصد الرئيس لطلاب العلم، إضافة إلى العلماء الذين استقروا بمصر وقصدهم الطلاب المغاربة للأخذ عنهم، أمثال، محمد بن عبد الرازق، الشهير بمرتضى الزبيدي (١١٤٥هـ/ ١٧٣٢م-١٢٠٥هـ/ ١٧٩١م)، والزبيدي أصله من واسط (العراق)، رحل إلى الحجاز، ثم استقر به المقام بمصر، فاشتهر فضله، وانهالت عليه الهدايا والتحف، وكاتبه

(١) نفس المصدر، ص ٢٤، ١٨٨.

(٢) جمع الحضيكى خلال رحلته للمشرق العديد من الكتب النفيسة، ورجع بعد تحصيل العلوم فى مصر إلى وادي إيسى، وبنى المدرسة الفلالية، واشتغل فيها بنشر العلم وبثه، وأسس مكتبة علمية، صارت فى ذلك الوقت من أشهر مكتبات المنطقة، التى تحتوي على رصيد مهم من المخطوطات، كما أخذ عن الحضيكي جمع غفير من العلماء المغاربة. الحضيكي: الرحلة، ص ١٨٨.

ملوك الهند واليمن والمغرب الأقصى، وكان أهل المغرب يتزاحمون على بابه لتحرير أنسابهم وتصحيحها [١].

يروى لنا الجبرتي فى حوادث عام ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م عن الشيخ الزبيدي وكيف اشتهرت كراماته؟، وكيف تهافت عليه الحجاج المغاربة؟ فيقول:" صار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة، ومنزلة كبيرة، واعتقاد زائد، حتى أن أحدهم إذا ورد إلى مصر حاجًا ولم يزره ولم يصله بشئ لا يكون حجه كاملًا، فتراهم فى أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين على بابه من الصباح إلى الغروب، وكل من دخل عليه قدم بين يدى نجواه شيئًا ما، فضة أو تمرًا أو شمعًا، على قدر فقره وغناه، وبعضهم يأتيه بمراسلات من علماء بلاده وأعيانها، يتلمسون منه الأجوبة"[٢].

كان من آثار التبادل العلمى بين علماء البلدين زيارة الكثير من علماء المغرب البارزين لمصر، وإقامتهم بها لفترة بعد انتهاء مناسك الحج. من علماء المغرب الذين وصلوا مصر فى ركب حج سنة احدى وثمانين ومائة وألف، بحسب ما جاء عند الجبرتي،

(١) هو محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسينى، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدى، (ت ١٢٠٥هـ)، الواسطى العراقى أصلًا، الهندي مولدًا، الزبيدي تعلمًا وشهرة، المصري وفاة، الحنفيّ مذهبًا، القادري إرادة، النقشبندي سلوكًا، الأشعري عقيدة. كان الزبيدي علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين، خلف عددًا كبير من المؤلفات، من أشهرها تاج العروس في شرح القاموس، وكشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام، وغيرها الكثير. وُصف الزبيدى بأنه لم يأت بعد الحافظ ابن حجر وتلاميذه أعظم منه اطلاعًا ولا أوسع رواية. لمزيد من المعلومات انظر، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، اعتناء: إحسان عباس، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ص٥٢٧، ٥٢٨.

(٢) الجبرتي: مصدر سبق ذكره، الجزء الثانى، ص ٢١٣.

الشيخ أحمد بن على بن عبد الوهاب بن الحاج الفاسي (ت ١١٩٣) [١]. بعد عودة الشيخ الفاسي من مكة المكرمة اجتمع فى مصر بأفاضل العلماء كالجوهري [٢]، وحسن الجبرتي[٣]، والسيد العيدروس [٤]. وقد ألقى الشيخ درسًا حافلًا فى رواق المغاربة بالأزهر، فقرأ المؤطا

---

(١) اشتهر الشيخ أحمد الفاسي بالورع والزهد والحكمة، تقلد القضاء، وقبله كرهًا، وكانت فتاويه مسددة، وأحكامه مؤيدة، ولما توفى سلطان المغرب ووقع الاختلاف والاضطراب بين أولاده، اجتمع الخاصة والعامة على رأيه فاختار المولى سليمان، وبايعه على الأمر بشرط السير على الخلافة الشرعية والسنن المحمدية، ولم يزل الشيخ على سيرته الحميدة حتى توفى فى سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف. نفس المصدر، ص ٢٥٨.

(٢) الإمام أحمد بن الحسن بن عبد الكريم بن محمد بن كريم الدين الخالدي الشافعي الأزهري الجوهري، وهو فقيه شافعي، من الأئمة المحدثين فى مصر فى القرن الثامن عشر الميلادى كان جد والدته الشيخ عمر العمري التونسي المغربي شيخ رواق المغاربة في منتصف القرن السابع عشر الميلادي. الجبرتي: عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ١٦٤. الزركلي: الأعلام: الجزء السادس، ص ١٦.

(٣) حسن بن إبراهيم بن حسن بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الجبرتي (١١١٠هـ- ١٦٩٨م/ ١١٨٨هـ – ١٧٧٤م) كان من أعلام علماء الأزهر في عصره، ويقوم بالتدريس فيه، كانت مكتبته عامرة بالكتب القيمة والمخطوطات النادرة، كما كانت دوره آهلة في كل وقت بالعلماء والمجاورين. الجبرتي: الجزء الثانى.

(٤) عبد الرحمن بن مصطفى بن شيخ بن مصطفى بن زين العابدين بن عبد الله الشافعي الحسيني اليمني الشهير بالعيدروس (ت ١١٩٢هـ): ولد باليمن (١١٣٥هـ). قام بالعديد من الرحلات إلى أقطار كثيرة، ارتحل إلى مصر وتوطنها واستقبله أهلها (١١٥٨هـ)، كان يوصف بالاستاذ العارف الكامل العالم العامل أحد الأولياء الراسخين والأصفياء العارفين العلامة الحبر المحقق النحرير صاحب الكرامات، له تصانيف كثيرة تزيد على الستين، بين منثور ومنظوم، تنوعت مواضيعها بين الحديث والتصوف والتراجم والرحلات، منها، النفحة الأنسية في بعض الأحاديث القدسية، الجواهر السبحية على المنظومة الخزرجية. انظر، أبو الفضل، محمد خليل بن علي بن محمد مراد الحسيني(١٢٠٦هـ): سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، الجزء الثاني، دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٣٢٨. الجبرتى: الجزء الثالث،ص ١٧.

بتمامه، وحضر هذا الدرس غالب الموجودين من العلماء، وبعد عودته للمغرب كلفه سلطان المغرب محمد بن عبد الله خطة القضاء فى سنة ثلاث ومائتين وألف [١].

يذكر الجبرتي أن الشيخ أحمد كان بصحبه ولديه محمد وهو الأكبر، وأبوبكر، وأنه تردد على أبيه الشيخ حسن الجبرتي كثيرًا، وتلقى عنه بعض الرياضيات، وترك عنده ولديه مدة إقامته بمصر، فكان أولاد الشيخ الجبرتي – ومنهم مؤرخنا– يطالعوا دروسهم سويًا على أيدي الشيوخ. ويذكر الجبرتي لطيفة، فيقول إنهم كانوا يسهرون غالب الليل يشاهدون ممرات الكواكب بسطح المنزل، ويراجعوا الشيخ (حسن الجبرتي) فيما يشكل عليهم فهمه. هذا اللطيفة التي ذكرها الجبرتي تدل على ما هو أبعد من الصلات العلمية، وهي تشير إلى الرابطة الأسرية والصداقة العميقة والثقة التى كانت تجمع علماء مصر والمغرب [٢].

كان من آثار التبادل العلمى بين علماء البلدين كذلك، زيارة الشيخ التاودي بن سودة (ت ١٢٠٩هـ) [٣] لمصر، كان الشيخ التاودي من علماء المغرب البارزين، أسند إليه كرسى

(١) الجبرتى: الجزء الثانى، ص ٢٥٨.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) التاودي بن سودة: هو أبو عبد الله محمد التاودى بن الطالب بن سودة المري الفاسي، ولد بفاس عام ١١١هـ/١٧٠٠م ونشأ بها منكبًا على طلب العلم والتحصيل. وهو فقيه المالكية، وشيخ الجماعة بفاس. كان مقدماً في كثير من علوم الشريعة، محققا لها، متضلعا فيها، لا سيَّما التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والتصوف، والكلام، والمنطق، وتخرج على يديه علماء كثر، كان مجتهدًا في العبادة، حسن الخلق، محبا لآل البيت، شديد الاعتناء بأمور الناس، ووصفه صاحب الشجرة بخاتمة المحققين الأعلام. توفى ١٢٠٩هـ. لم يضع الشيخ التاودي كتابًا عن الرحلة إنما أعد كتاب عن فريضة الحج ومناسكها. يعد كتاب "مناسك الحج"، للتاودي من أفضل ما كتب حول مناسك الحج. وهذا الكتاب توجد منه نسخ كثيرة في الخزائن المغربية منها، نسخة بالخزانة الحسنية تحت رقم: ٤٦٤١. لمزيد من المعلومات انظر، جعفر بن إدريس الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: عبد الله الكتاني، حمزة بن محمد الطيب الكتاني، محمد حمزة ابن علي الكتاني، دار الثقافة، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١١٣. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، علق عليه: عبد المجيد خيالي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٥٣٤.

الحديث والفقه فى جامع القرويين سنة ١١٤٧هـ. رحل الشيخ إلى المشرق سنة ١١٩١هـ، في ركب الحاج، ولقى عددًا كبيرًا من شيوخ مصر والحجاز، فأخذ عنهم وأسند إليهم واستجازهم، ولم يكتف بالاستفادة بل جلس للإفادة، فكانت له حلقة بالأزهر الشريف، وانتشر تلامذته فى كل من مصر والمغرب [١].

ومما قاله الشيخ التاودي عن زيارته لمصر وتواصله مع علمائها:" ما من الله على العبد المرحلة لأرض الحجاز، وظفر بزيارة الحرمين، ونزل أرض مصر، لقي من علمائها وفقهائها من يشار إليه بالنبل في العصر، فطفحت نفوس طائفة لها بالعلم اعتناء، وفي الأخذ عن مشايخ الغرب رغباء، أن أقرأ لهم من كتب الحديث ما تيسر، فاجمع الأمر على قراءة الموطأ بالجامع الأزهر، ولما افتتحناه وجرى في الدرس ذكر من أخذناه عنه أو رويناه، وقع ذلك من السامعين موقعًا"[٢].

كان من شيوخ الأزهر الذين أجازوه شيخ المالكية الشيخ على بن أحمد بن مكرم الصعيدى (ت ١١٨٩هـ) [٣]، وشيخ الشافعية الإمام الأكبر الشيخ أبو العباس أحمد

(١) عبد الله المرابط الترغى: مرجع سبق ذكره، ص ٢٩٤.

(٢) عبد الحي المالكي: فهرس الفهارس، الجزء الأول، ص ١٨٨.

(٣) أبو الحسن علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي (١١١٢- ١١٨٩هـ/١٧٠٠- ١٧٧٥م) تولى الشيخ التدريس بالأزهر، كما تولى مشيخة رواق الصعايدة. وهو فقيه محقق مجتهد، اشتغل بالحديث وعلومه. يصفه الجبرتي بأنه شيخ مشايخ الإسلام، عالم العلماء الأعلام، إمام المحققين، وعمدة المدققين. أغلب مصنفات الشيخ حواش على متون، مثل: حاشية على كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني، حاشية على شرح العزية للزرقاني، وله رسالة فيما تفعله فرقة المطاوعة من المتصوفة من البدع كالطبل والرقص. الزركلي: الأعلام، الجزء الرابع، ص٢٦٠.

الدمنهوري (ت١١٩٠هـ) [١]. وقد زاره فى بيته فأملى عليه وأجازه، كما التقى أيضًا بشيخ الحنفية الشيخ حسن الجبرتى (ت ١١٨٨هـ). وقال عنه عالم مصر وفقيه المالكية الشيخ الأمير (ت ١٢٣٢هـ) [٢] إنه هلال المغرب وبركته، وحامل فتواه وقدوته [٣].

وبالإضافة إلى العلماء فقد زار مصر من خلال ركب الحاج العديد من رجال الدولة المغاربة، الذين كان لهم ولع بالعلم، وشغفًا بلقاء العلماء، منهم، الوزير والمؤرخ أبو القاسم

(١) أحمد عبد المنعم بن صيام الدمنهورى، شيخ الأزهر في الفترة بين (١١٨٢-١١٩٠هـ / ١٧٦٧ - ١٧٧٦م) وكان عالما في الطب علاوة على علوم الدين. درس الفقه على المذاهب الأربعة، حتى أطلق عليه المذاهبي. قام بتدريس كتب التفسير والحديث والمواريث الفقه والعلوم الحكمية وعلم الأصول والقراءات والتصوف والنحو والبلاغة، والهندسة والفلك والفلسفة والمنطق والطب. هابته الأمراء؛ لكونه كان قوّالا للحق، أمَّارًا بالمعروف، سمحًا بما عنده من الدنيا، وقصدته الملوك من الأطراف وهادته بهدايا فاخرة، وسائر ولاة مصر كانوا يحترمونه، وكان شهير الصيت عظيم الهيبة. وتوفي بعد أن تجاوز التسعين من عمره، في يوم الأحد الموافق (١٠ رجب ١١٩٢هـ - ٤ أغسطس ١٧٧٨م). الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الثالث، ص ص ١٦٩- ١٧٠.

(٢) هو الشيخ العلامة محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر المالكي الأزهري، المعروف بالأمير، أخبر الشيخ الأمير بنفسه بأن أصولهم من المغرب، تتلمذ على الشيخ الأمير وأخذ عنه ما لا يحصى كثرة من طلبة العلم، قام بتدريس فقه المذاهب الأربعة، والقراءات، والهندسة، والفلك. تصدر لإلقاء الدروس في حياة شيوخه، ونما أمره واشتهر فضله، وشاع ذكره في الآفاق؛ وخصوصًا بلاد المغرب، وكانت تأتيه الصلات من سلطان المغرب في كل عام، ووفد عليه طلاب العلم للأخذ عنه والتلقي منه، وتوجه في بعض القضايا إلى دار الخلافة العثمانية، وألقى هناك دروسًا حضره فيها علماؤهم وشهدوا بفضله واستجازوه وأجازهم بما هو مجاز به من أشياخه. الجبرتى، الجزء الرابع، ص ص ٤٤١، ٤٤٢.

(٣) عبد الحي المالكي: فهرس الفهارس، الجزء الأول، ص٢٥٧.

الزياني (ت ١٢٤٩هـ) الكاتب الخاص للسلطان (محمد بن عبد الله)، ووزيره وسفيره [١]. يحدثنا الزياني عن مقامه بمصر ومن لاقاه من العلماء، قائلًا: " كان إلى جانبى بيت الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وقد عزمنى لبيته يومًا وكان يأتينى كل يوم، ثم اجتمعت بالشيخ سليمان الفيومى، كبير علماء الأزهر فى وقته، وعزمنى لبيته وآتى بيتى مرارًا، ثم اجتمعت بالشيخ كامل أفندى، والشيخ إسماعيل العباسي، شيخ الأطباء فى وقته، وكنت أدخل مع الشيخ عبد الرحمن إلى خزانة الكتب بمسجد محمد باى أبو الذهب[٢] بما فيها من غريب الكتب، وخصوصًا كتب التاريخ، فكان يعيرنى ما أطلب منه، فطالعت تاريخ النووي، وتاريخ الخلفاء للسيوطي، والخطط للمقريزي، وبحر الأنساب للشيخ المرتضى" [٣].

---

(١) أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني (١١٤٧- ١٢٤٩هـ/ ١٧٣٤- ١٨٣٣م) وزير ومؤرخ الدولة العلوية، ولد فى مدينة فاس، وكان جده عليًا إمامًا بقصر المولى إسماعيل، لقب أبي القاسم بذى الوزارتين، وكذا مؤرخ الدولة العلوية. قام بأسفار كثيرة وزار مناطق عديدة مثل تركيا ومصر وسوريا وسواحل أوروبا الجنوبية، واستطاع أن يكتب خمسة عشر مصنفًا كبير الحجم. وترجع شهرته الجغرافية إلى كتابه في أدب الرحلات (الترجمانة الكبرى). وقد أتم كتابه (الترجمانة) فى سن السادسة والثمانين، أى سنة ١٢٣٣هـ. أبو القاسم الزيانى: مصدر سبق ذكره، ص ٢٧.

(٢) المقصود هنا محمد بك أبى الدهب: أحد مماليك على بك الكبير، وساعده الأيمن. حين تولى منصب الخازندار من شدة فرحه قام بتوزيع الهبات والعطايا الذهبية على الفقراء والعامة، ومن هنا لقب بمحمد بك أبى الذهب، تولي زمام الأمور في مصر ونصب نفسه شيخًا للبلد (سنجق بك) بعد خروجه على أستاذه على بك ونجاحه فى أسره. توفى بعكا سنة ١٧٧٥، ونقل جثمانه للقاهرة، ودفن فى مسجده المواجه للأزهر، وهو المسجد الذي كان الزيانى يتردد على خزانة الكتب به، وهي كتب جمعها محمد بك وأودعها هذه الخزانة. الجبرتى: عجائب الآثار، الجزء الثانى، ص٢١١.

(٣) أبو القاسم الزياني: مصدر سبق ذكره، ص ١٩٤.

أقام الزياني بالقاهرة سبعة أشهر قابل خلالها العلماء والشيوخ، كما حرص على مقابلة الشيخ إسماعيل العباسي، ووصفه بأنه مؤرخ مصر، وشيخ الأطباء بها، وهو أيضًا آخر نسل بنى العباس من الخلفاء بمصر، وكان له معه حوارات طويلة، وتوالت زيارات الزياني للشيخ العباسي، وكان الأخير له ولوع بخبر دول المغرب الحديثة التى لم تبلغه، كدولة الأشراف الزيدانيين والعلويين، وحينما هم الزياني بالسفر أهداه كتاب الخطط للمقريزي(١).

ثم نزل الزياني بالإسكندرية فأقام بها شهرين، وذكر أنه لم ير مدينة أحسن منها عمارة، ولا أبدع منها صنعًا، ولا أوسع مسالك، وأعلى مباني، ولا أملح أزقة، وكأن محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، وقال فيها شعرًا بديعًا (٢):

هى القصور البيض لا ما حدثوا ... عن آرام وغيرهـــا من البنـــا

تختطف الأبصار من لالائهـــــا ... والليل قد ألقى القناع الأدكنا

ظلت الصلات العلمية بين مصر والمغرب ممتدة سواء فى موسم الحج أم خارجه. كان هناك علاقة خاصة تربط بين جامع القرويين فى فاس والأزهر فى مصر، ويلاحظ أن معظم العلماء وطلاب العلم الذين رحلوا للمشرق كانوا من مدينة فاس أو ممن درسوا فى القرويين(٣).

وقد تبلور نتاج هذه الروابط والصلات العلمية – علاوة على الرحلات – فيما صنفه العلماء من فهارس سجلوا فيها إجازاتهم وما حصلوه من علوم خلال رحلاتهم، فلم يقل هذا

(١) نفس المصدر، ص ١٩٥.

(٢) كان للحجيج زاوية بالأسكندرية معروفة باسم زاوية "أبى محمد صالح"، ينزلها المغاربة عند زيارتهم للأسكندرية، ولهم فيها أوقاف. أبو القاسم الزياني: مصدر سبق ذكره، ص ١٩٦.

(٣) عبد الرحمن بن زيدان: الدرر الفاخرة، ص ٦٢.

النوع من المعلومات فائدة عن مضامين الرحلات. ومن الملاحظ أن الصلات العلمية كانت قوية، إلا أن الزيارات لم تكن متبادلة بنفس التواتر والاستمرارية، فزيارة العلماء المشرقيين للمغرب كانت نادرة. بالطبع يعود الفضل في دوام اتصال المغاربة بالمشرق لركب الحاج، ومع ذلك فإن فكر علماء المشرق النابع من إجازاتهم ودروسهم ومؤلفاتهم كان يرحل إلى المغرب مع العائدين إليه بعد مكوثهم فترة طالت أم قصرت في رحاب مصر، بأزهرها، ومساجدها، وبيوت علمائها التي فُتحت لطلاب وعلماء المغرب.

خامساً- صورة المجتمع المصري من خلال كتب الرحلات الحجازية.

لم يتحرك الحجاج المغاربة فى فترات تواجدهم فى مصر قاصدين الحجاز أو عائدين منه فى فراغ، بل تحركوا فى وسط اجتماعي أحاط بهم فى كل مكان، سواء فى المساجد أو الأسواق أو المقامات التى حرصوا على زيارتها، فى كل هذه الأماكن تحرك المغاربة وتصرفوا بحرية أصحاب البلد، وكان احتفاء المصريين بهم لافتًا، حيث كان يوم قدوم ركب الحاج من الأيام التي يحتفل لها غاية الاحتفال بمصر [١].

كان احتفاء أهل مصر بالركب المغربي يبدأ منذ وصوله لحدود مصر. وقد جرت العادة حينما يصل الركب المغربي إلى مصر فإنه يتقدم رأسًا إلى القاهرة دون دخول الإسكندرية، فيمر على كرداسة [٢]، وغيرها مما حولها من قرى الريف المصري، ويخرج أهل مصر

(١) كان يوم قدوم ركب الحاج لمصر، ويوم خروج المحمل، ويوم كسر النيل عند وفائه، من الأيام التي يحتفل لها غاية الاحتفال، وتنتشر فيها مظاهر الفرحة والبهجة في كل مكان بمصر. الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص ٢٨١.

(٢) كرداسة: قرية من قسم الجيزة، تقع أسفل الجبل الغربي، وتبعد عن الجيزة نحو الساعتين. كانت أبنيتها بالأجر واللبن، ولهم أبنية مشيدة بالحجر والأجر، بها مسجد بمنارة، ونخيل كثير وأشجار سنط وأثل، وبها مقامان لأولياء الله الصالحين. وبها أنوال لنسيج المقاطع القطن والأحرمة الصوف وغير ذلك، ومصابغ وطواحين، ولها سوق يقام يوم الاثنين، من كل أسبوع، تباع فيه المواشى وخلافه، وهي مركز تلاقي طرق الرقيق والحجاج وطريق الغرب وطريق سيوة والطريق إلى وادي النطرون. على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الجزء الخامس عشر، الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ، ص١٤.

لملاقاة الركب، والتبرك بملاقاة الحجيج، وكل من له قريب أو صديق يقدم له مركوبًا للدخول عليه للمدينة، لأن دوابهم لا تبلغ إلا ضعيفة من كثرة التعب والسهر وقلة العلوفة والماء [١].

يقول ابن ناصر الدرعي عن استقبال أهل مصر للركب المغربي:" ولما أسفر النهار إذا بجماعة من الفلاحين تعدو بهم خيلهم؛ يتطلبون أصحابهم من الحجاج ومعارفهم ليودعوهم ما أرادوا إبقاءه بمصر من الجمال والبغال، تلك عادتهم. ومن لم يعهد له صاحب بحث عنه. وفى ذلك نعمة أي نعمة على الحجاج، يتركون بهائمهم حتى يؤوبوا من الحجاز، ويتعاملون معهم في ذلك كل بما قدر له، فتارة لهم وتارة عليهم. وتلقانا أصحابنا من أهل كرداسة وفرحوا بنا غاية الفرح". كان الحجاج المغاربة يتركون دوابهم بمصر، عند معارفهم من المصريين، أو من سبق لهم التعامل معهم بهذا الشأن من الفلاحين، ثم يعودون لأخذها بعد عودتهم من الحجاز، وفى ذلك تخفيف عليهم، اعتبره الدرعي نعمة من الله، ولا شك كان هذا نتيجة دائرة العلاقات والاتصالات التي نشأت خلال كل موسم حج بين المصريين والمغاربة [٢].

يصور لنا الوزير الإسحاقي جانبا آخر من طبيعة التفاعل بين المغاربة والمصريين، وصور متعددة لعادات وتقاليد المجتمع المصرى، التي استطاع في الفترة الوجيزة التي أقامها بمصر أن يلحظها، حيث كان دخول الركب الذي يضم الأميرة (خناثة)، إلى القاهرة يوم الخميس التاسع عشر من شوال سنة ١١٤٣هـ/ ٢٦ أبريل ١٩٣١م، ودامت إقامة الركب بمصر أسبوعًا واحدًا، ولكن بعد الانتهاء من قضاء مناسك الحج نزل الركب – في طريق عودته– على مصر مرة أخرى، وقضي بها ما ينيف عن شهر، رغبة في زيارة المشاهد

(١) الزياني: الترجمانة الكبرى، ص ١٩٣.

(٢) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص٢٥٦.

العظيمة بها، وقد سجل الإسحاقي مشاهداته في مصر خلال هذه المدة، خاصة فيما يتعلق بعادات وتقاليد المصريين في المناسبات المختلفة (١).

من المناسبات التي أثارت انتباه الوزير الإسحاقي في مصر فأفرد لها وصفًا دقيقًا، الاحتفال بليلة المولد النبوي، وكتب ملاحظاته حول مدى الاختلاف بين طريقة المصريين في الاحتفال وطريقة المغاربة، إذ قال عن الاحتفال بالمولد في المغرب:" إنه يقع في هذا المشهد الحسيني المبارك من إيقاد المصابيح والشموع والثريات شيء لا يحده وصف، وتُقرأ في تلك الليلة أحزاب وأذكار ودعوات بأصوات شجية، ولا ينام أحد تلك الليلة، ولا يغلق بها باب درب، ولا يتحرك فيها عسس، غير أنهم هنا لا يقرءون – يقصد المصريين – هذه الأمداح التي تقرأ عندنا في المغرب ليلة الميلاد المبارك مثل الهمزية والبردة، إنما تعظيمهم لهذه الليلة بإيقاد المصابيح في كل شارع وفى كل سوق، يستعدون لذلك قبل ليلة الميلاد بيومين وثلاثة، مع إظهار الفرح والسرور واللعب والطرب" (٢).

رصد الإسحاقي أيضًا من خلال رحلته بعض مظاهر الاحتفالات الصوفية بمصر، وما يميزها من طقوس روحانية، شأنه شأن جل المغاربة في الحرص على هذا الجانب، فلم يتخلف عن موعد حضور مجالس الذكر والحضرة، حيث حضر بمعية الأمير (محمد بن عبد الله) مجلسًا للذكر بالمشهد الحسيني، بعد صلاة عصر يوم الجمعة الخامس من ربيع الأول، وقدم لنا وصفًا لأجواء المجلس وما تم فيه؛ حيث افتتح بتلاوة القرآن، ثم شرع بالصلاة على النبي، ليبدؤوا في الذكر بـ "لا إله إلا الله" مدة ساعة، وذكر اسم الله مجردًا "

(١) محمد البغيال: صورة المجتمع المصرى خلال القرن الثامن عشر الميلادي في رحلة الوزير الإسحاقي، دورية كان التاريخية، العدد الرابع والثلاثون، ديسمبر ٢٠١٦، ص ٧٢.

(٢) الإسحاقى: الرحلة، ص ٣٢٥.

الله، الله.." مدة ساعة أخرى، وتبع ذلك إنشاد أبيات من قصيدة البردة، للإمام البوصيرى، فتلاوة القرآن ثم العودة للذكر، وختم المجلس بقراءة الفاتحة [١].

كان نصيب المجتمع المصري من انتقادات الإسحاقي الأوفر على الإطلاق بين البلدان التي زارها خلال رحلة الركب، فقد ركز على رصد صور ومشاهد مختلفة عن الأمراض الاجتماعية معبرًا عن استنكاره وشجبه لها، بطريقة مباشرة حينًا وغير مباشرة أحيانًا، مع النقد اللاذع المحمل بالسخرية المبطنة. نذكر على سبيل المثال ما خص به الإسحاقي فلاحي مصر من انتقادات، حيث لاحظ سذاجتهم وضعف تدينهم بما يقضي به العجب بحسب نص كلامه، وتأكيدًا لمقولته، ذكر أن أحدهم سأل فلاحا أمامه قائلًا: أنت فلاح أم مسلم؟ فقال: فلاح، وذهب لحاله. من خلال هذه الواقعة أنزل الأسحاقي حكمًا على فئة عريضة من المجتمع المصرى وألزمهم به، قائلًا:" ولا شك أن فلاحة مصر بعد أمن الدين لا شعور لهم به" [٢].

يتضح من هذه الواقعة القياس الفاسد الذي اعتمد عليه الإسحاقي في حكمه على المجتمع المصري في كثير من الأمور، بالنسبة لواقعة الفلاح فمن الواضح من بنية السؤال أنه كان هناك نية في الإيقاع به بغرض السخرية، فالسؤال كان مفخخًا، وأكبر من قدرة الفلاح البسيط على استيعابه، فقد تم تخييره بين شيئين ليس بينهما أي اشتراك في الجنس أو النوع، كما إن من البديهي أن التخيير يكون فيما لا يُجمع بينهما، وهناك احتمال آخر منطقى هو أنه ربما كان الفلاح في الأصل على ملة غير الإسلام. والأكيد، أننا لا يمكن أن نزعم أن مكوث الوزير الإسحاقي لمدة شهر ونيف في مصر يجعله قادرًا على الإحاطة بالمجتمع المصري.

(١) الإسحاقي: الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٣٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٤٧.

ولعل تفسير تحامل الإسحاقي على أهل مصر في غير موضع في رحلته، واقعة حدثت للركب الفاسي حين نزلوا القاهرة، حيث تركوا بعض متاعهم ودوابهم لدى جماعة يدرسون بالأزهر يقال لهم أولاد شاهين، وكتبوا عقدًا يثبت نوع وعدد البضائع المودعة بالتفصيل، ودفعوا ثمن علف بهائمهم وأجرة من يقوم بها لمدة مائة يوم، ولكن هؤلاء الجماعة خانوا الأمانة، وبحسب ما ذكر الإسحاقي:" عمدوا إلى حوائجنا فلبسوها حاجة حاجة، وعمدوا إلى البهائم فسافروا عليها حتى دبروها وسلخوا ظهورها". ولعل هذه الواقعة سبب كافٍ ليسلط المرء جام غضبه على أهل البلد، خاصة أنه تعامل مع فئات بعينها، ممن يتكسبون من موسم الحج[1].

تركت هذه الحادثة أثرها على الإسحاقي، مما جعله لا يرى خلال شهر قضاه بمصر إلا سلبيات المجتمع، وهي وإن كان بعضها موجود ولا شك – شأن كل مجتمع– إلا أن الإسحاقي سلط عليها ضوءًا قويًا فضخمها ومن خلالها أصدر حكمًا قاسيًا ليس على المجتمع المصرى فحسب، بل على المشرق كله، قائلًا:" وليتحقق المتحقق أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء متشعبة وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصمه الله من أهلها". ورغم ذلك فقد ناقض هذا القول حين سجل في رحلته الحركة الدائبة والنشاط الكبير في الأزهر الشريف، حيث قال:" والجامع المذكور لا يزال غاصًا بالناس ليل نهار، ما بين قارئ ومطالع لكتاب، ومصلى، وذاكر، كأنما هو سوق عامرة، والمجالس الدرسية به متظافرة متزاحمة، ظهر هذه الحلقة لظهر هذه"[2].

من ضمن العادات التي سجلها وانتقدها الإسحاقي عادة شرب القهوة لدى المصريين، واعتبرها من العادات الاستهلاكية في مصر والبلاد المشرقية، قائلًا:" ففنجانها أول ما يقدم

(١) الإسحاقي: الرحلة، ص ص ٣٣٤، ٤١٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٤٣.

للضيوف، وينفقون عليها من المال الشئ الكثير"[١]. كان المصريون يرحبون بضيوفهم من المغاربة ويحرصون على مجالستهم وإكرامهم، ودعوتهم إلى منازلهم، ويعدون تقديم القهوة من باب إكرام الضيف. وقد أكد ابن الطيب في كتابه: رحلة ابن الطيب على أن من عادات المصريين فى الضيافة تقديم القهوة، قائلًا:" وأهل مصر إنما يتكارمون بينهم بشراب البن الذي يسمونه القهوة، ونحن لا نعرفها، ولا شك أنها تعين على السهر فى العبادة، ويستعين بها الطلبة فى المطالعة الليلية، فإذا شربها الإنسان وجد فى أعضائه نشاطًا، وأحس بخفة فى رأسه"[٢].

كما أكد الدرعي في الرحلة الناصرية أنه كان من إكرام الضيف في مصر تقديم القهوة له، وذكر أنه تمت دعوته يومًا لمنزل نقيب الأشراف، وكان الأخير يحرص على دعوة المغاربة لداره، خاصة ليلة المولد النبوي، فأخرج لهم شربات من السكر والحلو، لما عرف أن المغاربة لا يشربون القهوة، التي يستعملها العام والخاص في هذه النواحي المشرقية. قائلًا عن حب المشارقة للقهوة: " وكانت عندهم أعظم التحف، تغنى عن غيرها، ولا يغنى عنها غيرها. ونحن لا نعرفها، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شراب ولا شهوة"[٣]. وقد خصص الدرعي صفحات من رحلته لبيان موقف العلماء من شرب القهوة، وقال: إن أكثر

(١) الإسحاقي: الرحلة، ص ٣٤٣.

(٢) ابن الطيب: مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩. انتشرت تجارة البن فى الإمبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر، وتم تداول البن منذ عام ١٥٠٠ عندما جلبه حجاج وتجار اليمن إلى مكة المكرمة، وراجت تجارته فى مصر، وساهمت فى تعويض تجار القاهرة عن خسائرهم فى تجارة التوابل إلى أوروبا التى سيطر عليها الهولنديون فى القرن السابع عشر، لذا انتشر البن وأصبح أحد مشروبات الضيافة فى القاهرة. ثريا فاروقى: الحجاج والسلاطين: إدارة العثمانيين للحج بين عامى ١٥٠٧-١٦٨٣، عرض: عبد القادر أحمد عبد الغفار، نادى المدينة المنورة الأدبي الثقافي، ٢٠٠٥، ص ٢٥١.

(٣) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص٢٨٤.

العلماء مائلون في القهوة إلى الإباحة، وذكر من مميزاتها أنها تعين على السهر في العبادة، ويستعين بها الطلبة في المطالعة الليلية، فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطًا [١].

لم يكن التشدد في مسألة القهوة ديدان كل المغاربة، بيد أن المقيمين منهم بمصر ألفوا شراب القهوة، وكانوا يقدمونها للضيافة ، جريًا على عادة المصريين، لأقاربهم الذين يفدون لمصر كل عام في ركب الحاج الفاسي، حيث ذكر ابن الطيب، أن رفيقهم في الرحلة (سيدي محمد)، كان له عم مقيم بمصر هو (الحاج مسعود)، عندما استقبلهم في بيته قدم لهم القهوة على سبيل زيادة الإكرام في الضيافة ضمن مشروبات أخرى. وقد خصص ابن الطيب أيضًا صفحات في كتابه رحلة ابن الطيب لتتبع أقوال العلماء في القهوة. والواقع، أن مسألة شراب القهوة كانت من عادات المجتمع المصري التي تناولتها كتب الرحلات الحجازية، بتفاصيلها، وأفردت لها صفحات لمناقشة أقوال العلماء فيها، واستعراض أحكامها وفوائدها، وقد ألف فيها ابن الطيب كتابًا سماه (الإستمساك بأوثق عروة في الأحكام المتعلقة بالقهوة)[٢].

ومن عادة اعتبرها بعض الرحالة المغاربة مستهجنة، رفضوها واستنكروها في المجتمع المصري كشرب القهوة، ننتقل إلى صورة أخرى من صور العادات والاحتفالات في مصر التي سجلتها كتب الرحلات الحجازية، وهو احتفال أحبه المغاربة وانتظروه وشاركوا فيه بحماس، وهو الاحتفال بخروج المحمل. حيث كانت كسوة الكعبة المشرفة التى ترسل سنويًا للحجاز تصنع فى مصر فى الأوقات المخصصة لها كل عام [٣].

(١) نفس المصدر، ص٢٨٧.

(٢) رحلة ابن الطيب، مصدر سبق ذكره، ص١٤٦.

(٣) إسماعيل حقى جارشلى: أشراف مكة وأمرائها فى العهد العثماني، ترجمة: خليل على مراد، الطبعة الأولى، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١٢٢.

دأب المحمل الذي يحمل الكسوة [١] على الخروج مرتين فى شهر شوال. الخروج الأول كان فى النصف من شوال، وفى ذلك اليوم يؤتى بكسوة الكعبة من دار الصنعة، فتضرب سحابة على باب القلعة فيحضر الوالى، والأمراء، والقاضى. بعد جلوس الباشا يجئ بالجمل الذي يحمل المحمل، وهو قبة من خشب رائقة الصنع، بشبابيك ملونة، وعليها كسوة من رفيع الديباج المخوص بالذهب [٢].

ورقبة الجمل ورأسه وسائر أعضائه محلاة بجواهر، والجمل نفسه غاية ما يكون من السمن وعظم الجثة، وحسن الخلقة، جلده كله مخضب بالحناء، يقوده سائسه، ويتبعه جمل آخر على مثل صفته بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعًا قطعًا [٣]، والناس يتمسحون بها ويتبركون، ثم يمر ذلك بين يدي الباشا والأمراء فيقومون لها إذا مرت بهم تعظيمًا، ثم يذهب بها حملتها ويمرون بها فى وسط السوق، والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسينى فتنشر فى صحن المسجد وتخاط هناك [٤].

(١)المحمل هو نوع من الهوادج التى تحمل على الجمال، يرجع تاريخ إرساله إلى عهد "شجر الدر"، وأنه كان هودجًا لها حين حجت، وقد زينته بخمائل الحرير والتطريز البديع، والمحمل المصري من قديم الزمان تصحبه كسوة للكعبة والحجرة الشريفة، ويكون للمحمل موكب خاص حين سفره إلى الأراضى الحجازية، فى موسم الحج، ولا يركب فى المحمل أحد مطلقاً. محمد طاهر الكردي المكي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الجزء الخامس، الطبعة الأولى، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠، ص ١٩٦.

(٢) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٩.

(٣) رحلة ابن الطيب، مصدر سبق ذكره، ص١٥٦.

(٤) يجتمع الأمراء والجند جميعًا على الهيئة المتقدمة فى الخروج الأول، فإذا تكامل جمع الأمراء وخرج الباشا جئ بجميع ما يحتاج إليه أمير ركب الحج من إبل، ومطابخ، وخيل، ورماة، وغير ذلك من الأسباب التى تخرج من بيت المال، كل طائفة لها أمير مقدم عليها، حتى الطباخين والفراشين. أبو القاسم الزياني: مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٥.

أما الخروج الثاني للمحمل فيكون فى يوم الحادى والعشرين من شوال، ويعد هذا اليوم يوم من أيام الزينة في مصر، يجتمع له الناس، ويسمى يوم خروج المحمل الكبير [١]. ويؤتى بالجمل الذي يحمل المحمل فيأخذ باشا مصر زمام الجمل ويناوله لأمير الحاج، بمحضر القاضى والأمراء، ومعاينتهم، ثم يسلمه أمير الحج لسائسه فيذهب به [٢]. فإذا مر المحمل بين يدي الباشا وذهب، جئ بأرباب الطوائف من الصوفية بشيخهم ولوائهم، رافعين أصواتهم بالذكر، ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل والعسكر وسط المدينة، والناس مشرفون من الديار والمساجد، ويتعطل غالب الأسواق فى ذلك اليوم، وبعد مرور المحمل من وسط المدينة يبدأ استعداد الحجاج للخروج من القاهرة [٣].

ثم يُسار بالمحمل على هيئته وتعبئته، وينزل ذلك اليوم بالعادلية خارج باب النصر، فيقيم هنالك إلى اليوم الثالث والعشرين، فيرحلون من هناك إلى بركة الحاج [٤]، ويخرج أمير

(١) نفس المصدر، ص ٢١٠.

(٢) كان الغرض من عملية التسليم والتسلم هو الشهادة بأن الباشا سلم أمير الحاج ما يحتاج إليه فى ذهابه وإيابه، ويشهد القاضى والأمراء ويكتب ذلك إلى السلطان. الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٠.

(٣) كانت الديار المشرفة على الشوارع التى يمر عليها المحمل قد تكرى من أول السنة ولا يسكنها مكتريها ولا ينزلها إلا فى ذلك اليوم بقصد التفرج على المحمل، وفيما سوى ذلك تبقى معطلة، ويعد هذا اليوم عند المصريين من أعظم أيام السنة، ولا ثانى له إلا يوم دخول الباشا لمصر، ويوم كسر النيل عند وفائه، ويقرب منه يوم قدوم الحاج. ابن الطيب: مصدر سبق ذكره، ص ١٥٨.

(٤) بركة الحاج: أو بركة الجب، أو جب عميرة، وهي بظاهر القاهرة من بحريها، وتسميها العامّة بركة الحاج لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة إلى الحج في كل سنة، ونزولهم عند العود بها، ومنها يدخلون إلى القاهرة ومن الناس من يقول: جب يوسف، وهو خطأ، وإنما هي أرض جب عميرة، وعميرة هذا هو :ابن تميم بن جزء التجيبي من بني القرناء، نسبت هذه الأرض إليه، فقيل لها :أرض جب عميرة. المقريزي، تقى الدين أبى العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدى المقريزى(ت٨٤٥هـ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، ص٤٣٤.

الحاج وجميع عسكره، ويقيمون هناك إلى آخر اليوم السابع والعشرين من شوال [١]. كان أفراد ركب الحاج الفاسي يحضرون احتفالات المحمل المصري، وكان من عادة المغاربة في العموم، وأهل فاس على الخصوص، أن يشاركوا عملياً فى ذلك الاحتفال بحمل جانب من كسوة الكعبة المشرفة، ويمرون بها وسط القاهرة، للتبرك بها، ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان فى طريق مرورهم. ومن المغاربة من كان لا يكتفى بالمشاركة فى الاحتفال فقط، بل يذهب فى مرافقة المحمل فى طريقه من مصر حتى مكة المكرمة [٢].

لم يغفل الرحالة المغاربة في كتبهم وهم يتناولون المجتمع المصري بالوصف ظلم الولاة، وحيل الباعة، ومكر العاملين، وكذلك فعل الدرعي، صاحب الرحلة الناصرية، ولكنه أرجع ذلك لاتساع البلاد وكثرة أجناس الناس فيها، وذكر رواية عن بعض أصدقائه من التجار، ممن دخلوا مصر، وسجلوا شهادتهم عما رأوه فيها، فكتب عن لسان أحدهم ما أخبره به، قائلًا:" .. لما دخلت مصر، سكنت في بعض الوكائل، وكان أن اجتمعنا في محل واحد جماعة: منا فلان تاجر، وفلان طالب علم، وفلان من أهل المجون، فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد لحاجته، فإذا جن الليل جمعنا المنزل، فنتحدث بما رأينا، فيقول التاجر: ما رأيت مثل هذه البلدة في التجارة! فأهلها كلهم تجار، ويقول الفقيه مثل ذلك، وذو المجون مثل ذلك! وما ذاك إلا لكثرة أجناس الناس فيها، ومن طلب فيها جنسًا يظن أن غالب أهل البلد كذلك". ويختم قائلًا:" بالجملة فإن مصر أم البلاد شرقًا وغربًا، لا يستغرب شيء مما يحكى عنها من خير أو شر. وبالجملة فأهلها لهم عقول راجحة، وذكاء زائد، فمن استعملها في الخير فاق فيه غيره، ومن استعملها في الشر فكذلك"[٣].

(١) أبو القاسم الزياني: مصدر سبق ذكره، ص ٢١١.

(٢) محمد المنونى: مرجع سبق ذكره، ص٢١.

(٣) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص٢٥٩.

وبرغم احتفاء المصريين بركب الحاج إلا إن الأمر لم يخلو من بعض الكدر، حيث تسجل لنا المصادر ظاهرة المصادمات التى أحيانًا ما جرت بين وفود حجاج المغرب وفئات بعينها من سكان العاصمة [١]. سجل الجبرتي فى حوادث شهر رمضان عام ١٢٠٢هـ/ ١٧٨١م، حادثة تسبب فيها المغاربة، فيقول:" وفى خامس عشرينه وقع بين طائفة المغاربة الحجاج النازلين بشاطئ النيل ببولاق وبين عسكر القليونجية[٢] مقاتلة، وسبب ذلك أن المغاربة نظروا بالقرب منهم جماعة من هؤلاء العسكر يتعاطون المنكرات، فكلمهم المغاربة ونهوهم عن فعل القبيح، وخصوصًا فى هذا الشهر، أو أنهم يتباعدون عنهم، فضربوا عليهم بالطبنجات، فثار عليهم المغاربة، فهرب العسكر إلى مراكبهم، فنط المغاربة خلفهم، واشتبكوا معهم، ومسكوا من مسكوه، وذبحوا من ذبحوه ورموه إلى البحر، وقطعوا حبال المراكب ورموا صواريها، وحصلت زعجة فى بولاق تلك الليلة، واغلقوا الدكاكين، وقتل من القليونجية نحو العشرين، ومن المغاربة دون ذلك" [٣].

فلما بلغ إسماعيل بك[٤] ما حل بعسكره اغتاظ، وأرسل إلى المغاربة يأمرهم بالانتقال من مكانهم فانتقلوا للقاهرة، وسكنوا بالخانات، فلما كان ثاني يوم نزل الأغا والوالى ونادوا فى

(١) يونان لبيب رزق، محمد مزين: مرجع سبق ذكره، ص٤٢.

(٢) القليونجية هم بحارة المراكب النهرية التى كان يطلق عليها القليون. الجبرتى: الجزء الثانى، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.

(٣) الجبرتى: الجزء الثانى، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.

(٤) تولى إسماعيل بك مشيخة البلد بعد موت محمد بك أبى الذهب. كان إسماعيل بك من تلاميذ (على بك الكبير) فلما استلم زمام الأمور نسج على منواله، فبعث إلى رجال حزبه الذين كانوا لا يزالون في سوريا فاستقدمهم إليه، وأقرهم في أماكنهم، استعدادًا لمقاومة (مراد بك) و(إبراهيم بك) منافسيه على مشيخة البلد، لذلك كان استقرار الأمن في القاهرة من الأمور المهمة للغاية لدى إسماعيل بك، وحادثة مثل حادثة المغاربة كانت كفيلة بتهديد الأمن، بالنظر إلى توتر الأوضاع. جرجي زيدان: مصر العثمانية، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٣٢.

الأسواق على الحجاج المغاربة بالخروج من المدينة، ولا يقيموا بالبلد، وكل من آواهم يستاهل ما يجرى عليه، يقصد إرهاب وتخويف المصريين أولاد البلد كى لا يساعدوا إخوانهم المغاربة، ولكن المغاربة امتنعوا عن الخروج، في المقابل حلف إسماعيل بك أن كل من مكث بعد ثلاثة أيام قتله، فتجمع المغاربة واشتروا أسلحة لتأمين أنفسهم، وذهب طائفة منهم إلى شيوخ الأزهر، مثل الشيخ العروسي(ت ١٢٠٨هـ)[١]. والشيخ الجوهري (ت ١١٨٢هـ)، فتكلم الشيخين مع إسماعيل بك، وتشفعوا للحجاج الغيورين على الدين والأخلاق، المعظمين للشهر الكريم، ضيوف الرحمن وضيوف مصر، فقبل إسماعيل بك شفاعة الشيخين، ونادى على المغاربة بالأمان [٢].

ومن خلال ما سجله الجبرتى يمكن ملاحظة أن الحجاج المغاربة لم يكونوا يصطدمون فى العادة بعناصر من المصريين أو أولاد البلد كما أسماهم الجبرتي، وإنما كانت صدامهم يقع مع عناصر عسكرية فى خدمة السلطة، سواء كانوا فى خدمة العثمانيين أو فى خدمة المماليك، وقد عانى منهم المصريون أيضًا وثاروا عليهم، وقاد ثورتهم رجال الأزهر، خاصة الشيخ العروسي، الذي قاد ثورة أهالي القاهرة في أكتوبر ١٧٨٧م ضد مظالم إسماعيل بك شيخ البلد، التي تصدى لها علماء الأزهر، وقاموا بمساندة الأهالي في ثورتهم [٣].

(١) الشيخ العروسي هو أحمد بن موسى بن داود أبو الصلاح العروسي الشافعي، المولود ١١٣٣ هـ/١٧٢٠م بقرية منية عروس، مركز أشمون المنوفية، تولى الشيخ العروسي مشيخة الأزهر بعد وفاة الإمام الدمنهوري سنة ١١٩٢ هـ، وثار مع العلماء واعتصموا بمسجد الإمام الشافعي عندما أراد إبراهيم بك تولية غيره. ظل في المشيخة حتى وفاته١٢٠٨هـ/١٧٩٣م. انظر، الجبرتي: عجائب الآثار، الجزء الرابع، ص ٢٤٧. سليمان رصد الحنفي الزياتي: كنز الجوهر في تأريخ الأزهر، مطبعة هندية، مصر، ص٩٨.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار، الجزء الرابع، ص ٢٤٧..

(٣) يونان لبيب رزق، محمد مزين: مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

اجمالًا، تعددت الجوانب الإيجابية للعلاقة بين الحجاج المغاربة والمجتمع المصرى، خاصة فى الجانب الاقتصادي، نظرًا لموقع مصر المهم فى طرق التجارة العالمية، فقد كانت ممرًا لبضائع الصين والهند وسواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر، التى كانت تُحمل للبحر المتوسط ومنه لموانئ أوروبا، مما جعل مصر ميدان عمل وتجارة لكثير من المغاربة. كما كانت أسواقها عامرة بكل البضائع التى يحتاجها الحجاج المغاربة للتقوى على مواصلة الرحلة للأراضى المقدسة، أو لشراء الهدايا للأهل والأحباب فى الوطن [١].

يصف الدرعي الأسواق في مصر، قائلًا:" فكل سوق دخلته تقول هذا أكثرها زحامًا، فإذا خرجت منه لآخر وجدته مثله أو أشد"[٢]. ويصف ابن الطيب في رحلته أيضًا هذا الزحام، قائلًا:" وكان خروجنا على باب النصر وسرنا، والطريق كلها أسواق واحدة من كثرة الباعة، والذاهب، والجائي من البركة إلى مصر". كان هذا الزحام الشديد أمرًا طبيعيًا خلال هذا الموسم، الذي يتجمع فيه مواكب الحج من مختلف البلدان في مصر[٣].

صاحب قدوم الحجاج المغاربة حالة من الرواج الاقتصادي في الأسواق المصرية في حركة البيع والشراء، وكان هناك فضاء واسع خارج قلعة الجبل تباع فيه الإبل والخيول وسائر الدواب، وبه يوجد كل ما يحتاجه الحاج. كان النفع الاقتصادي متبادلاً فكثير من الحجاج المغاربة كان يحمل معه بضائع بغرض التجارة فيها، خاصة السلع التي تتحمل النقل لهذه المسافة الطويلة دون أن تفسد أو تفقد قيمتها، وكانت السلطات تسمح بدخول بضائع الحجاج

(١) تقى الدين الدورى؛ خولة شاكر الدجيلى: تاريخ المسلمين فى إفريقية، الطبعة الأولى، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ٢٠١٤، ص ٤٤.

(٢) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٠.

(٣) رحلة ابن الطيب، مصدر سبق ذكره، ص١٤٦.

معفاة من الرسوم، وبدون تفتيش من سلطات الجمارك، وقد استفاد حجاج المغرب بلا شك من هذا الأمر [١].

وهكذا، جلب موسم الحج المشترين جنباً إلى جنب مع البائعين، وعزز المنافسة بين مختلف التجار، من مختلف المناطق في العالم الإسلامي، وبهذا كان الحج بمثابة موسم للتبادل التجاري، وخلاله كون العديد من التجار ثرواتهم، وأنشأوا شبكة كبيرة من العلاقات مع تجار مصر والحجاز، كما مول الكثير من الحجاج مصاريف رحلة الحج بعوائد هذه التجارة [٢].

وكما كان هناك حالة من الرواج الاقتصادي بسبب وفود الحجاج كان هناك أيضًا حالة من الانتعاش الاجتماعي التي تسود مصر عمومًا والقاهرة خصوصًا عند دخول الحجاج المغاربة، خاصة أن دخولهم كان يتزامن مع شهر رمضان وعيد الفطر، بما فيهما من مظاهر بهجة وفرح تعم مصر، فيشارك الحجاج المغاربة هذه البهجة، خاصة مع ما يستشعره أهل مصر من البركة فى وجود الحجيج ببلادهم، وكان الحجاج بمثابة سياح ينتشرون فى كافة أنحاء مصر فى الأسواق، والأضرحة، ومجالس العلم [٣].

(١) الجبرتى: الجزء الثانى، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٣.

(٢) سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث: أطلس الحج والعمرة تأريخًا وفقهًا، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠، ص ١٠٠.

(٣) يونان لبيب رزق، محمد مزين: مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

سادساً- مشاهد ومزارات الحجاج المغاربة بمصر.

نتيجة توسط مصر الطريق إلى البقاع المقدسة ظهر اسمها فى الأدب المغربي، شعرًا ونثرًا، هذا الأدب الذي أوجده حنين المغاربة المتزايد للبقاع المقدسة، ومن الأبيات التي جاء فيها اسم مصر مقرونًا بمشاعر اشتياق وحنين، الأبيات التالية [١]:

يا ركب مصر رويدًا يلتحق بكم ... قومٌ مغاربة لحم على وضم

ويودع الشاعر المغربي أبو على الحسن بن مسعود اليوسي ركب الحاج، ويذكر طريقه والمشاهد المعظمة، ويتشوق للحج، قائلاً [٢]:

أحجاج بيت الله سيروا وأبشروا ... بما لم ينله رائح ومبكر

فطوبى لكم واليمن يحدو مطيكم ... إذا ما بدت أعلام مصر تصور

كان من عادة الحجاج المغاربة إذا ما دخلوا مصر أرسلوا رسائل سلام واستغاثة للقطب العارف بالله أبى العباس المرسي (ت ٦٨٦هـ) [٣] مع أصحابهم من أهل الإسكندرية، يتوسلون فيها إلى الله أن يذهب عنهم كل بأس، ويكفيهم كل شر، ويوصون بقرأتها أمام

(١) الأبيات من نظم الشاعر أبو الحكم مالك بن مراحل السبتى (٦٠٤ هـ مالقة – ٦٩٩ هـ فاس)، محمد المنونى: مرجع سبق ذكره، ص ٤٦.

(٢) محمد المنونى: المرجع السابق، ص ٥١.

(٣) أبو العباس شهاب الدين أحمد بن عمر المرسي، من مرسيه بالأندلس، توفي سنة ٦٨٦هـ . ١٢٨٧م. كان من أكابر العارفين، وهو تلميذ أبي الحسن الشاذلي وخليفته ووارث علمه، ومن بث علومه وأظهرها. سار الناس إليه من أقاصى البلاد. وله مقام كبير ومسجد باسمه في مدينة الإسكندرية. ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن: تحقيق وتعليق: الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ص ٩٣. عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى المسمي لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية، تحقيق وضبط: أحمد عبد الرحيم السايح، توفيق على وهبة، الجزء الثاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٦.

مقامه، وتعليقها على الحائط يمين المحراب. وقد انتقد بعض الرحالة المغاربة، أمثال العبدري[١]، أهل مصر لأنهم ينوهون بقبر الإمام الشافعي ويغفلون ذكر غيره من الصحابة وآل البيت النبوي مع أنهم أولى بالاهتمام [٢]، ولكن الوزير الإسحاقي أثناء تعقيبه على رحلة العبدري قرر إن تنديد العبدري بأهل مصر بسبب هذا الأمر لا محل له، لسببين، أولهما: أن خفاء بعض قبور الصحابة لا غرابة فيها، وقد تحدث مع تعاقب الأزمنة، وثانيًا: أن الإظهار والإخفاء أمر إلهي، ليس للعبد يد فيه، فمن أظهره الله للناس ظهر حيًا وميتًا [٣].

والحقيقة أن أهل مصر كانوا شغوفون بآل البيت، ويوجبون محبتهم، ويجعلون ذلك من محبة النبي عليه الصلاة والسلام، ويتولونهم جميعاً، ويحترمون الصحابة والصالحين وينزلوهم منزلة كبيرة، وفي هذا التقى كل من المصريين والمغاربة. يذكر الحضيكي عن هذا الأمر أنه كان من عادة أهل مصر الخروج لزيارة صالحى القرافتين: القرافة الكبرى والقرافة الصغرى [٤]، صبيحة

(١) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٧.

(٢) هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود، أو عبد الله، الحاحي (ت نحو ٧٢٥هـ)، المشهور بالعبدري، نسبة إلى عبد الدار، وهي قبيلة من جنوب المغرب الأقصى، وهو صاحب الرحلة المعروفة باسمه، عزم العبدري على الرحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحج، فسافر برفقة ابنه في الخامس والعشرين من ذي القعدة من سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٨٩م. سجل في رحلته كل ما رآه في ذهابه وإيابه، وقد أقام في القاهرة والأسكندرية. اتسم أسلوب العبدري بالنقد اللاذع، فقد انتقد أهالى كثير من المدن التي مر بها وأصلاهم نارًا حامية. انظر، العبدري: الرحلة المغربية، ص٧، ١٠.

(٣) الإسحاقي: الرحلة، ص ٣٣٢.

(٤) كان بالقاهرة قرافتان، والقرافة بفتح القاف وراء مخففة وألف مخففة وفاء، مقبرة مشهورة بمصر مسماة بقبيلة من المغافر يقال لهم بنو قرافة، احداهما بسطح المقطم، وسميت (القرافة الصغرى)، وبها قبر الإمام الشافعي في قبة عالية مزخرفة، وبها جامع القرافة أو جامع الأولياء، وترب عليها أوقاف للقراء، ومدرسة كبيرة للشافعية، وهي معظم مجتمعات أهل مصر، وأشهر منتزهاتهم، وفيها قال المقريزى: إن القرافة قد حوت ضدين من.. دنيا وأخرى فهى نعم المنزل، والأخرى شرق الفسطاط، يقال لها (القرافة الكبرى) وفيها كانت مدافن أموات المسلمين. تقى الدين أبى العباس أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ص٣٢٩، ٣٣٠.

كل جمعة، رجالًا ونساءًا، صغارًا وكبارًا، فكانت الطرقات كالسيول تموج بالناس، ويستطرد قائلًا: " اشتملت تربة قرافة مصر على ما لا يحصيه عدًا إلا الله، من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم، وعلماء الدين، وأئمة الإسلام، وأولياء الله تعالى، وعباده المخلصين، سلفًا وخلفًا" (١).

حرص الحجاج المغاربة عند نزولهم بمصر على زيارة قبور آل البيت وأولياء الله الصالحين الموجودة بالقرافة، وخاصة قبور الصحابة، كعمرو بن العاص، وعقبة بن نافع، ومقامه إلى جهة جبل المقطم (٢)، وعليه بناء عظيم ومسجد. إضافة إلى زيارة المشائخ والعارفين، مثل الإمام تاج الدين بن عطاء الله (ت تقريبًا ٧٠٧هـ) (٣)، والإمام شرف الدين البوصيري (ت حوالي ٦٩٥هـ) (٤). كان الحجاج المغاربة يرون أن فضل القرافة وما اشتملت عليه من المزارات أشهر من أن يذكر، وأنها كما ورد بالآثار قطعة من الجنة (٥).

(١) الحضيكي: الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٤، ١٨٨.

(٢) جبل المقطم: الجبل المشرف على القرافة مقبرة فسطاط مصر. الحموي: معجم البلدان، الجزء الخامس، ص ١٧٦.

(٣) الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله السكندرى، وصفه الشعراني بالزاهد المذكر، الكبير القدر، تلميذ الشيخ ياقوت رضى الله عنه، وقبله تلميذ الشيخ أبى العباس المرسى، كان ينفع الناس بإشاراته، ولكلامه حلاوة فى النفوس، وجلالة. أخذ ابن عطاء الله السكندري عهد الطريق إلى الله على الإمام الكبير أبي العباس المرسي. وله كتاب " التنوير في إسقاط التدبير" و"حكم ابن عطاء"، مات سنة 707هـ وقبره بالقرافة يزار. الشعراني: الطبقات، الجزء الثانى، ص ٤١.

(٤) البوصيري: هو الإمام شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري، كان مولده في شهر شوال عام ٦٠٨ هـ/ ١٢١٣م، اشتهر البوصيري بمدائحه النبوية. هو إمام أئمة المديح، صاحب البردة، التي نال بها شرف الإمامة في هذا المضمار، عد قصيدته الشهيرة (الكواكب الدرية في مدح خير البرية) والمعروفة باسم (البردة) من عيون الشعر العربي، ومن أروع قصائد المدائح النبوية. ينتهي نسبة إلى قبيلة صنهاجة بالمغرب، توفي حوالي ٦٩٥هـ، ودفن بالأسكندرية. الزركلي: الأعلام، الجزء السادس، ص ١٣٩.

(٥) أبو القاسم الزياني: مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٨.

كانت زيارة قبر الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) [١] من الأمور التى حرص عليها المغاربة حرصًا شديدًا. يقول الزياني عن قبر الإمام الشافعى:" أنه لا ينبغى لأحد يدخل مصر أن يهمل زيارته، وهو من المشاهد الكريمة، له أوقاف كثيرة، ويتخذ عند قبره فى كل سبت مولد يجتمع فيه ناس كثيرون، يضيق بهم المسجد وغرفاته ما بين فقراء وأمراء، ورجال ونساء، يبيتون طول الليل بين ذكر بجماعة، وقراءة قرآن وصلاة، لا يفترقون إلى طلوع الفجر، ولا يخلو ذلك الجمع من جماعة من الصالحين"[٢].

حرص المغاربة أيضًا على زيارة قبر الإمام صاحب المذهب الليث بن سعد(ت ٧٩١هـ)[٣]، إضافة إلى حرصهم على زيارة قبري الإمامين الشهيرين، الحاملين لراية

(١) الإمام الشافعي: هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع (١٥٠- ٢٠٤هـ/٧٦٧-٨٢٠م)، هو الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة. صاحب المذهب الشافعي في الفقه، إمام في علم التفسير والحديث. قدم إلى مصر سنة ١٩٩هـ، ومات فيها سنة ٢٠٤هـ. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، الطبقة العاشرة، الجزء العاشر، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١، ص ٥.

(٢) أبو القاسم الزيانى: مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٤.

(٣) أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن إمام أهل مصر في الفقه والحديث، قال الشافعي رضي الله عن: الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وكان ابن وهب تقرأ عليه مسائل الليث، فمرت به مسألة فقال رجل: أحسن والله الليث، كأنه كان يسمع مالكًا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحدًا قط أفقه من الليث. كان من الكرماء الأجواد، ويقال إن دخله كان خمسة آلاف دينار في السنة، فكان يفرقها في الصلات وغيرها. انظر، ابن خلكان، أبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر(٦٠٨- ٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، الجزء الرابع ، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٢٧.

الإمام مالك، راوية المذهب عبد الرحمان بن القاسم [١]، وحاميه وناصره أشهب [٢]، وقبريهما متجاوران، وقد اعتقد المغاربة أن الدعاء عندهما مستجاب. كانت زيارة قبريهما نوع من الصلة يؤديه المغاربة لأصحاب الإمام مالك في مصر [٣].

كان حب آل البيت وعترة النبى وتوقيرهم وتعظيمهم قويًا فى قلب المغاربة، لذلك كانوا ينتهزون فرصة وجودهم فى مصر لزيارة قبور آل البيت، مثل، قبر السيدة نفيسة [٤]، وكانوا يعتقدون بأن قبرها معروف بإجابة الدعاء وفى هذا يقول الشاعر [٥]:

ثم منه كرداسة بت على النيل ... وللنيل بهجة وبهاء

ثم عد لمصر نقضي به الأوطار ... إن الحجاز صعب عناء

واغتنم زور الصالحين سواء ... منهم الميتون والأحياء

ثم ستى نفيسة وهي ... الطاهرة المحتمى بها الأتقياء

(١) هو أبو عبد الله عبد الرحمان بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي، المصري، (١٣٢- ١٩١هـ/ ٧٥٠- ٨٠٦م) عالم الديار المصرية ومفتيها. كان أعلم الناس بأقوال الإمام مالك، صحبه عشرون عامًا. كان زاهدًا، تقيًا، وذا مال ودنيا، فأنفقها في العلم، وقيل: كان يمتنع من جوائز السلطان. بعد موت الإمام مالك انتفع أصحاب مالك بابن القاسم، وهو صاحب المدونة الكبرى في المذهب المالكي. الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء التاسع، ص ١٢١.

(٢) هو أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي العامري الجعدي، فقيه الديار المصرية في عصره، وصحب الإمام مالك. قال عنه الإمام الشافعي: ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه، توفى بمصر سنة ٢٠٤هـ. نفس المصدر، الجزء التاسع، ٥٠١.

(٣) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٨.

(٤) السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق، وهي تقية، عالمة بالتفسير والحديث. وفيات الأعيان، الجزء الثانى، ص ١٦٩.

(٥) محمد المنونى: مرجع سبق ذكره، ص ٩٦.

ثـــــم بالجـــملة القرافـة كــبرى ... مــع صغـــــرى وفيهمــا أوليـــــــاء

فـــــاجتهد فـــى زيـارة القـــــوم ... وأعلــم أنهــم بـــاب الله والكرمـــــاء

إضافة للقرافتين حرص المغاربة كذلك على زيارة تربـة المجاورين، ومن اشتملت عليـه من الأئمة المحققين، والعلماء العاملين، وسمي المكان بالمجاورين، لأنـه قريب من الأزهر، وبـه يـدفن غالـب أهلـه والمجـاورين لـه، إذ لا يسـكنها فـي الغالـب إلا العلمـاء والغربـاء والفقراء(١).

إجمالًا، أحب المغاربـة مصر، واجتهدوا في وصفها، وصفها الحضيكي بأنها روضـة ذات محاسن، وفيها ماء غير آسن، وأشجار تنبت بآفانين الأحاسن، وهي مجمع البحرين، كأنها بدر والنيل حولها هالـة، وكأن السماء نثرت على أغصانها النجوم، وهي دار ملك وخلافة، ومسكن علماء أعلام، ومجلس قضاة وحكام، ومقر صلحاء وعباد، ومقر صوفية وزهاد، يحيط بها النيل وما أدراك ما النيل، سيد الأنهار، والمسخر لـه جميع مياه الأرض، أصل منبعه الجنة، ومن لم يعرف يسأل وليس الخبر كالعيان (٢).

سابعاً: المغاربة فى ركب الحاج المصري.

كان ركب الحاج المصري أحد أهم وأكبر قوافل الحجيج للبيت الحرام (٣). يبدأ استعداد

---

(١) الرحلة الناصرية: مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٠.

(٢) الحضيكي: الرحلة، مصدر سبق ذكره، ص١٩٣.

(٣) إبراهيم بن إسحاق الحربي: المناسك وأماكن وطرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩، ص ٢٩٩.

أمير الحاج المصرى للرحلة المقدسة قبل موسم الحج بفترة [١]، ففى شهر ربيع الأول يخلع الباشا على من يقرره أميرًا للحاج من البكوات، فينزل أمير الحاج من القلعة بموكب حافل، ويبدأ فى الإعداد لرحلة الحج، وعندما يقترب موعد خروج ركب الحاج، يتوافد على القاهرة الراغبون فى أداء فريضة الحج، ويكون توافد الحجيج عادة فى أواخر شهر شعبان، ويستمر طوال شهر رمضان [٢]. فى تلك الفترة يكون أمير الحاج قد أتم استعدادته، وانتهى من تكوين القوة العسكرية التى ستصحبه لحماية قافلة الحاج، كانت هذه القوة تضم خمسمائة جندى من رجال الأوجاقات العسكرية، كما ضمت هذه القوة بعض الجنود المغاربة [٣].

---

(١) كان أمير الحج القائد الأعلى لقافلة الحاج، ومن اختصاصاته شراء ونقل المؤن المرسلة مع القافلة والإشراف على توزيعها. كما كان على أمير الحج المصرى حمل (الصرة) سنوياً إلى الحجاز وهو مبلغ كبير من المال من الخزانة المصرية للحرمين الشريفين، وكان عليه أيضاً توزيع الإتاوات النقدية والعينية على شيوخ وأمراء البدو القاطنين على طول طريق الحج لتأمين الحماية للقافلة. كان من أهم اختصاصات أمير الحج حماية الحجاج أثناء الرحلة، وكان يساعده فى ذلك فرقة من الجند، وكان ركب الحج المصرى دائماً بحاجة لحماية عسكرية من العربان المنتشرين على طول الطريق من القاهرة إلى السويس، ومن القبائل المعادية فى إقليم الحجاز، ومن القراصنة المنتشرين فى البحر الأحمر. عبد العزيز محمد الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠، ص ٦٥.

(٢) أحمد الرشيدى: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج، تحقيق: ليلى عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨١، ص ٣٢.

(٣) من أشهر أمراء الحج حسين بك كشك، وقد خرج على إمارة الحج فى عام ١١٧١هـ/ ١٧٥٧م، ثم عين مرة ثانية أميراً للحج من عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦٠م إلى ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م، وقد اشتهر بشجاعته الفائقة، وشدة بأسه فى محاربة العربان، وتأمين طريق الحج، فكان العرب يهابونه حتى كانوا يخوفون بذكره أطفالهم، وامتنع عن دفع عوائد العربان طوال السنوات التى خرج فيها للحج، مما كان له أثر كبير فى تشجيع الحجاج المغاربة على السفر رفقة ركب الحج المصرى. كان أخر من تولى إمارة الحج قبل دخول بونابرت مصر صالح بك الذي عُين أميراً للحج عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٧، وحدث أثناء عودته احتلال بونابرت لمصر، وانتهاء نفوذ المماليك وتوليهم منصب أمير الحج. سميرة فهمي على عمر: إمارة الحج فى مصر العثمانية ٩٢٣- ١٢١٣هـ/ ١٥١٧- ١٧٩٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص ص ٩٨، ٩٩.

كانت قافلة الحاج المصرى تضم بالإضافة إلى حجيج مصر، جماعة كبيرة من أهل المغرب، وبعض حجاج التكرور وغرب أفريقيا [١]، كان بعض الحجاج المغاربة يفضلون الخروج مع ركب الحاج المصري، وهم الذين كانوا يؤثرون المشى ليلًا، مستسهلين مشقة السهر بالليل على حر النهار، سيما في أيام الصيف، وإنما يؤثر ذلك صنفان من الناس، أهل الثروة والقوة، الذين لهم محامل وهوادج ينامون فيها ليلًا على ظهور الإبل، ويصبحون بالنهار كأنهم مقيمون. والصنف الثانى، هم الفقراء الذين لا إبل لهم ولا أمتعة، فكانوا يرافقون الركب المصري، ويعيشون على ما ينالوه من أهل المروءة من التصدق بفضل الأطعمة [٢].

وأما من لم يذهب مع الركب المصري من المغاربة فلا يخرجون إلا اليوم السابع والعشرين من شوال، وينزلون ببركة الحاج عند رحيل الركب المصري، أو قبله بقليل، ومن تخلف عن السفر مع الركب المصري لضعفه، أو قلة ذات يده، يتوجه إلى مدينة السويس ويركب بحر القلزم لجدة، وكانت السفينة تصل ميناء جدة خلال عشرين يومًا فقط [٣].

يصف صاحب الرحلة الناصرية أحوال الحجاج المغاربة عند مفارقتهم مصر، قائلًا: " وبات الركب هنالك، في حر شديد، يتملون من رؤية النيل، وشرب مائه. ويتمتعون بشميم

(١) عبد القادر بن محمد بن عبد القادر محمد الأنصارى الجزيرى الحنبلى: الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٤٠٨.

(٢) أبو القاسم الزياني: مصدر سبق ذكره، ص ٢١٣.

(٣) كان حجاج البر يلقون المخاطر من العربان، الذين كانوا يتجمعون على الحجاج من سائر النواحى ويعملوا فيهم السلب والنهب والقتل، كما واجه حجاج البحر مخاطر القراصنة، إذ كان البحر المتوسط يموج وقتئذ بالأخطار من السفن المسيحية، ويروى لنا الزيانى كيف وقع هو ومن معه أسرى فى أيدي فرسان القديس يوحنا فى مالطة أثناء إبحاره إلى مصر. الزياني: مصدر سبق ذكره، ص١٢٠ .

عراره، وطيب غذائه، وقد مزجوا حلاوة ما يتمتعون به، بمرارة ما له من شدائد الدرب يتوقعون" ويخرج غالب أهل مصر لوداع ركب الحاج، الذى يستعد ليستكمل رحلته إلى مكة المكرمة، وهى الغاية والقصد التى قطع الحجيج من أجلها الطريق واجتازوا الفيافى والقفار(١).

ثامناً- الحملة الفرنسية وأثرها على ركب الحاج المغربي.

ظل المغرب كيانًا مستقلًا عن الدولة العثمانية، لذا حرصت السياسة المغربية من خلال علاقاتها الخارجية على التأكيد على استقلالية المغرب، وتقلبت العلاقة بين البلدين ما بين الصراع والتوتر حينًا، والتعاون والتقارب حينًا آخر، على الرغم من ذلك لم تؤثر تقلبات العلاقات العثمانية- المغربية فى الحركة البشرية بين المغرب ومصر، بل بالعكس، شهدت هذه الفترة تدفقًا في الحركة البشرية النشطة للمغاربة للشرق بغرض الحج وطلب العلم(٢)، خاصة وأن العلاقات العثمانية - المغربية منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر اتسمت بالوفاق والتعاون، مما ساهم فى زيادة حرية تنقل المغاربة فى ربوع المشرق الإسلامي(٣).

ولكن بنهاية القرن الثامن عشر، واجه ركب الحاج المغربي تهديدًا كبيرًا، تمثل فى الحملة الفرنسية على مصر 1798-1801 مما أثر على سفر الحجاج المغاربة نحو البقاع المقدسة لسنوات خوفًا من القوات الفرنسية الغازية. فى الوقت الذي كان نابليون يثبت سيطرته على القاهرة وضواحيها، وجنوده يطاردون فلول المماليك، كانت الطلائع الأولى

(١) الرحلة الناصرية، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠٤.

(٢) كان هذا يعنى أن الانتماء الإسلامى والحضارى لعب دورًا حاسمًا فى وحدة المسلمين بين المشرق والمغرب، بل أن أشهر الرحلات الحجية تعود إلى هذه المرحلة، ومنها "ماء الموائد" لأبى سالم العياشي، و"رحلة اليوسي" للحسن بن مسعود اليوسي، و"الرحلة الناصرية" لأبى العباس بن ناصر، و"رحلة الإسحاقي" للوزير الإسحاقي. مصطفى الغاشي: مرجع سبق ذكره، ص ١٧.

(٣) مصطفي الغاشي: نفس المرجع، ص ١٨.

لركب الحاج المغربي لموسم ١٢١٢هـ/ ١٧٩٨م، تشرف على الدخول إلى مصر بعد الفراغ من آداء فريضة الحج، ورغم علمهم بالمتغيرات التى حدثت بمصر، إلا أن الركب تابع طريقه للوصول إلى المغرب عبر الطريق البري المعتاد، ليجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع الجيش الفرنسي [١].

انشطر ركب الحج المغربى إثر هذا الحدث إلى قسمين: قسم عرج على الشام صحبة أمير ركب الحاج المصري، مفضلًا ركوب أهوال البحر على المخاطرة بحياته فى صحاري مصر وسط الأعراب وجنود الحملة الفرنسية، ويبدو أن عددهم كان محدودًا لا يتجاوز الحجاج الميسورين. وقسم ثانى فضل الاستمرار فى طريقه البري المعتاد عبر مصر إلى بلاد المغرب، وهم الأغلبية [٢].

وفي مصر اضطر الحجاج المغاربة لتغيير طريقهم البري المعتاد؛ إذا عوض أن يتوجهوا مباشرة من القاهرة إلى الإسكندرية سلكوا طريق الساحل الشمالي الرابط بين رشيد والأسكندرية، ورغم ذلك لم يسلموا من هجمات العربان، وإرهاب جنود الحملة. لم تنته معاناة

(١) مما يؤسف له أن أيًا من هؤلاء الحجاج لم يخلف أثرًا مكتوبًا عن هذه التجربة والمواقف التى نتجت عنها، فخلافًا لما روجته بعض المصادر من أن حجاج شمال أفريقيا عمومًا لاقوا عناية خاصة من طرف إدارة الحملة وقائدها، فإن عدة مؤشرات تؤكد أنهم عانوا الأمرين جراء حالة الفوضى التى شهدها عدد من أقاليم مصر، جراء هجمات العربان، وتعديات الجنود الفرنسيين. محمد حواش: خطاب التضامن الإسلامى فى ضوء حملة نابليون على مصر والشام وموقف المغرب منها، الطبعة الأولى، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٣، ص ٢٥٧.

(٢) يصف أحد ضباط الحملة معاناة هذا القسم من الحجاج المغاربة قائلًا:" إن إبراهيم بك لم يسمح إلا بوصول الحجاج الفقراء إلينا، الذين كانوا يأتون عبر جماعات مؤلفة من مائتين إلى ثلاثمائة فرد من جميع بلدان شمال أفريقيا من فاس إلى طرابلس، كانوا يصلون على درجة كبيرة من الإعياء، تجعلك لا تستطيع أن تفرق بينهم، هزيلين مثل البلدان القاحلة التى عبروها، ومنهوكى القوى مثل السجناء الذين طواهم النسيان فى أصفدة الحديد. نفس المرجع، ص ٢٥٩.

الحجاج عند هذا الحد فعند وصولهم للأسكندرية وجدوها مطوقة بالإسطول الإنجليزى، مما تعذر معه ركوب البحر، فتكدست أعدادهم بالميناء، الشئ الذي أثار مخاوف الفرنسيين، ورغبوا فى التخلص سريعًا من هؤلاء الحجاج، فأجبر نابليون بعضهم على ركوب البحر، واضطر البعض الآخر على متابعة رحلته فى الصحراء الليبية. ومما لا شك فيه أن هؤلاء الحجاج عاشوا حدثًا غير مسبوق حين رأوا بأعينهم كيف تحولت مصر التى مروا عليها قبل شهور إلى مستعمرة فرنسية [١].

عندما سمعت القيادة الفرنسية بحلول ركب الحاج المغربي بالتراب المصري في أبريل عام ١٧٩٩ داخلها الخوف الشديد، وخاصة عند نزول الركب بضواحى القاهرة، ومما عمق الشكوك الفرنسية ما نقله أحد أفراد هذه القافلة من أن الحجاج المغاربة قدموا لمحاربتهم، والجهاد فيهم، وأنهم اشتروا خيلًا وسلاحًا [٢]. وعلى الرغم من تكذيب أمير الركب المغربي لهذه التهم خلال عملية الاستجواب التى أخضع لها بحضور حاكم القاهرة الجنرال دوكا "Dugua"، وتأكيده على الأوامر الصارمة التى وجهها إليه السلطان المولي (سليمان بن محمد) [٣] ساعة مغادرة ركب الحاج للمغرب بعدم استعمال العنف ضد الفرنسيين بمصر،

(١) محمد حواش: المرجع السابق، ص ٢٦١.

(٢) شارك في الجهاد ضد الفرنسيين كثير من المغاربة منهم الشيخ محمد الجيلاني السباعي، والشيخ محمد بن الأحرش الدرعاوي، ومن انضم إليهم من حجاج مجاهدين. الجبرتى، الجزء الثالث، ص ٢٧٠.

(٣) سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي، أبو الربيع. بويع بفاس سنة ١٢٠٦هـ، وكان عمره إذ ذاك خمس وعشرين سنة، وتوفى سنة ١٢٣٨هـ قال عنه صاحب الاستقصاء: وأما الدين والتقوى، فذلك شعاره الذي يمتاز به، ومذهبه الذي يدين الله به. وقال أيضا: وكانت القبائل في دولته قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها من عدله وحسن سيرته. كان السلطان يخشى على دولته من سياسة فرنسا التوسعية، وزاد من قلق السلطان الحملة الفرنسية على مصر، في نفس الوقت كان المغرب يعاني من الاضطرابات الداخلية. الناصري: الاستقصا، مصدر سبق ذكره، ص ١٢١.

فإن قافلته جُردت من أسلحتها، وأخذ عشرة حجاج من كبرائها رهائن، ثم أرغم الركب المغربي على مغادرة المدينة فى ظرف لا يتعدى ثلاثة أيام تحت حراسة مشددة [١].

يُفهم من هذا، أن حالة التوجس التى سيطرت على الإدارة الفرنسية بمصر بخصوص موقف المغرب الرسمى من الاحتلال الفرنسى لمصر قد تلاشت بفعل هذا الاتصال المباشر مع ركب الحاج، الذي ظل مخلصًا للخط الذي رسمه له المولى سليمان ساعة مغادرته للمغرب، بالرغم من ذلك ظلت الشكوك تحوم حول ركب الحاج المغربي، يتضح هذا من الاجراءات الأمنية المشددة التى كانت تتخذ بحق الحجاج المغاربة، فمن جهة لم يعد الحجاج المغاربة – على الرغم من تواضع أعدادهم– أحرارًا فى سلوك طريقهم البري المعتاد، لأن الفرنسيين قاموا بتوزيعهم فى القاهرة إلى جماعات صغيرة، ثم تم إرسالهم تحت حراسة مشددة إلى مدينة دمياط لأخذ اتجاه جديد[٢].

كان استمرار مجئ ركب الحاج المغربى إلى مصر وفق هيئته المعهودة مثار تشكك الفرنسيين، خاصة في ظل الكثرة العددية، والقوة الاقتصادية، والنفوذ الذي كانت تتمتع به الجالية المغربية بمصر، في مدينتى القاهرة والإسكندرية، وقد زاد من شكوك الفرنسين حول ركب الحاج المغربى اشتراك الجالية المغربية فى مصر بثورتي القاهرة الأولى والثانية،

(١) لا يستبعد أن يكون نابليون قد زود الحجاج برسائل خاصة إلى مولاى سليمان. فقد كانت القيادة العسكرية الفرنسية فى مصر تتملكها مخاوف قوية مما يمكن أن يأتى من جهة المغرب، لأسباب مختلفة، منها: الافتقار إلى المعلومات نتيجة حصار الأسطول الإنجليزى لسواحل مصر، وكذا ما راج فى الشهور الأولى للحملة من إشاعات قوية تقول بإن المغرب قد يبعث بجيش لاستخلاص مصر من يد الفرنسيين، إضافة إلى ما كانت تثيره الجالية المغربية بمصر من مخاوف لدى الفرنسيين، حيث قاد مجاهدين مغاربة حركة مقاومة شرسة بكل من إقليمى البحيرة والصعيد. محمد حواش: مرجع سبق ذكره، ص ١٦١.

(٢) نفس المرجع، ص ١٦٦.

وانضمام عدد من الحجاج المغاربة إلى حركات المقاومة، وقيادة بعضًا منهم معارك حقيقية ضد القوات الفرنسية[١].

وهكذا، تحول ركب الحاج المغربي إلى عنصر تهديد وإزعاج للسلطات الفرنسية، بالرغم من أن القيادة السياسية المغربية قد حددت موقفها منذ الشهور الأولى للحملة الفرنسية على مصر، وعبرت عن ذلك صراحة فى أكثر من مناسبة، ولكن التصرف الشعبي سواء للجالية المغربية بمصر أو الحجاج المغاربة كان مختلفًا ومقاومًا، ولم يخضع لاعتبارات السياسة، واتخذ تبعًا لذلك أشكال كثيرة، تراوحت بين التحريض على الجهاد ضد الفرنسيين، والمشاركة فيه، بل وقيادته فى بعض الأحيان [٢]. يؤكد ذلك الجبرتي، حيث يذكر أنه قد أشيع خبر بمصر وتناقله الناس أن رجلًا مغربيًا حضر لدمنهور يدعى المهدوية، وبصحبته نحو الثمانين نفرًا، فكاتب أهل البلاد، ودعا الناس إلى الجهاد، فاجتمع عليه أهل البحيرة، وغيرهم، وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيس [٣].

---

(١) قام كل من الشيخ محمد الجيلانى السباعى ومحمد بن الأحرش الدرعاوى بإدارة حركة مقاومة شديدة فى إقليمى الصعيد والبحيرة. نفس المرجع، ص ١٦٧.

(٢) كان المغرب يعاني من اضطراب أمنى جراء الصراع المحتدم بين مولاى سليمان وعدد من أخوته وبعض الزعمات القبلية، كما كان وزيره ابن عثمان، الذي كان يعتبر مهندس علاقات المغرب الخارجية، من دعاة التزام المغرب جانب الحياد بخصوص الصراع الدائر آنذاك بين فرنسا وانجلترا، إضافة لخطر الطاعون والجفاف اللذان حلا بالمغرب فى تلك السنة، لهذه الاعتبارات كان المغرب عاجزًا عن الاستجابة لنداءات الجهاد التى كانت ترد عليه من السلطان العثمانى سليم الثالث. محمد حواش: المرجع السابق، ص ١٧٧.

(٣) الجبرتي: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٢٦.

خـــاتـــمـــة:

لا توجد في جغرافية المسالك والممالك قطعة من الأرض حظيت بعناية الرحالة والمؤرخين المغاربة مثل الطرق المؤدية إلى الحجاز، والبلدان التي تقع في منتصف المسافة بينهما، حيث صنف المغاربة مئات الكتب المختلفة المنازع والأساليب، ومئات القصائد الحافلة بوصف منازل ومراحل رحلة ركب الحاج المغربي. مثلت هذه البلدان الواقعة في المسافة بين المغرب والحجاز لاسيما مصر التي كانت واسطة العقد في المسافة بين البلدين، مجمعات استوثقت عبرها الصلات بين الشعوب الإسلامية، من حيث مبادلة الإجازات بين العلماء، وتلاقح معطيات الفكر العربي والإسلامي مما لم يعرف له نظير حتى بعد السهولة والسرعة التي طرأت على وسائل المواصلات في القرن التاسع عشر والعشرين.

كانت قوافل الحجيج بمثابة مواكب سنوية للبقاع المقدسة، يتخللها التبادل التجارى، والنشاط العلمي والثقافي، إضافة للتواصل والتلاقى الإنساني بين المسلمين، وقد شكل الحج احدى الممارسات الدينية التى تجسدت من خلالها علاقة المغرب بالمشرق، وهو – بلا شك– عامل مهم وأساسى فى تشكيل التفاعلات الإسلامية – فى القرن الثامن عشر.

نالت مصر حيزًا كبيرًا من كتابات الرحالة المغاربة الذين زاروها من خلال ركب الحاج فى القرن الثامن عشر، حيث زخرت كتاباتهم بتراجم الرجال، وإجازات العلماء، وذكر كثير من المسائل العلمية التى حملها الحاج طالب العلم ليبحث عن إجابتها عند علماء مصر وفقهائها، اجمالًا، كانت هذه الكتابات بما احتوته من مادة خبرية سواء أكانت تاريخية أم جغرافية أم علمية بمثابة مرآة عاكسة لطبيعة هذا العصر، أظهرت الكثير من نظم السياسة والاقتصاد وتطور العمران والثقافة.

ونظرًا لأن تدوين الرحلة يختلف عن كتابة التاريخ التقليدية فقد قدمت لنا رحلات المغاربة للشرق عمومًا ومصر على وجه الخصوص تاريخًا حيًا مشبعًا بالبعد الإنسانى، حين نقرأها نلمس تاريخًا حقيقياً للبشر، مليئًا بالحياة، متجردًا من الفذلكة التاريخية، مباشرًا

نحو الحقائق، نكاد نرى الطريق مرحلة مرحلة، وطبيعة مشاعر المغاربة حين تلوح لهم حدود مصر، دون تزييف أو مبالغة، نراهم يرتادون الأسواق، يشاهدون احتفالات المحمل الشريف، ينتشرون فى ربوع القاهرة آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، يختطلون بالناس فى الأسواق والمساجد والأضرحة، يصفون النيل والأهرمات وما بمصر من آثار، ينتقدون بعض عادات المجتمع المصرى، ومن خلال هذا الوصف والتصوير يرسمون لنا صورة من زوايا متعددة لمجتمع القاهرة، وما يمرون به من مدن مصرية في طريقهم للأراضى المقدسة.

ومع أن الحجاز هو الهدف المنشود في رحلة المغاربة للشرق، إلا أنهم كان لابد لهم من المرور بمصر ذهاباً وإياباً، فينزلون بها، ويرتادون مدنها، وأسواقها، ومساجدها، وأضرحتها، ومراكزها الثقافية، لذا دونوا مذكراتهم وأنشطتهم فيها، ووصفوا مشاهداتهم، واعتمدوا فى تسجيل الوقائع على ما تراه أعينهم، مدفوعين بشغف البحث عن الجديد، والرغبة العميقة فى المعرفة، من باب طلب العلم، واستلهام العبر من التجارب التى مروا بها. وقد شكل ما كتب عن مصر من خلال رحلة الركب المغربى ثروة معرفية كبيرة، ومخزنًا للقصص واللطائف التى لفتت أنظار الحجاج المغاربة فى مصر.

كما كشف ما كتبه الرحالة المغاربة عن مصر في كتب الرحلات الحجازية عن طبيعة الوعي بالآخر، الذى تشكل عن طريق الرحلة، سواء كان هذا الوعى من خلال تعاملات النخبة المغربية سواء كانوا أمراء أو ساسة أو من العلماء الذين ضمهم ركب الحاج مع نظرائهم من النخب المصرية، أو من خلال تعاملات الأفراد العاديين من المصريين والمغاربة الذين اختلطوا معًا فى الأسواق والطرقات، وكان تفاعلهم خير دليل على الرابطة التى جمعت بين المصريين والمغاربة، والتى كانت تتوثق كل عام مع تجدد موعد الركب السنوى للحج، وأيضًا مع من يتخلف من المغاربة للإقامة بمصر وقتًا أطول سواء لطلب العلم أو للتجارة أو الاستيطان الدائم.

ساهم ركب الحج فى الحراك العلمي، الذي ازداد زخمه نتيجة التقاء علماء المغرب بعلماء مصر، وكانت مصر فى موسم الحج تموج بحركة دائبة من النشاط العلمي، تعددت مظاهره، وتنوعت خلاله معالم الإفادة العلمية، فنجد أثر علماء المغرب يسرى إلى مصر، حيث ازدهرت حلقات الدرس بالجامع الأزهر بالعلماء المغاربة الذين جلسوا للشرح والتعليم.

أوضحت رحلات ركب الحاج الصلة المزدوجة بين رحلة الحج وطلب العلم، من حيث الرغبة فى حفظ العلم وجمع شتاته، من مسائل علمية، وإجازات حصل عليها طالب العلم، إضافة إلى تدوين ما جاء في هذه الرحلات، شكرًا ووفاءً لذكرى الشيوخ الذين التقاهم الطلاب المغاربة بمصر وأخذوا عنهم العلم، واختلط الوفاء بالاغتباط والفخر بما حصل عليه الحاج من علم طالما تشوق إليه فيعمد إلى تسجيله فرحًا بالظفر به.

ساهم الحج فى خلق حقل ثقافي، كان من نتائجه المباشرة كثرة الرحلات العلمية، وازدهار التبادل العلمي بين مصر والمغرب، كما وطد العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية بين البلدين، وزادها رسوخًا وعمقًا وتأثيرًا. ومن جانب آخر فإن التاريخ المغربي والمصري يحتفظ بمواقف تضامن وتآزر بين الشعبين، عبر عنها المغاربة عندما كانوا السباقين الأوائل للمشاركة إلى جانب الشعب المصري فى محنته العصيبة، إبان الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨. فلا غرو إذًا أن يتم توثيق الصلات والروابط الحميمة بين كل من مصر والمغرب خلال القرن الثامن عشر، وتأريخ الذاكرة التاريخية المشتركة، الغنية بعلائقها، والمتينة بوشائجها، والمتجذرة فى عمق التاريخ. وفى هذا السياق يعد تاريخ ركب الحاج المغربي وعلاقته بمصر، هو بحث فى التاريخ، والإرث الروحي والثقافي المشترك، والرابطة الدينية التى لا تنفصم عراها بين البلدين.

ختامًا، شكلت رحلة ركب الحاج المغربي ثروة معرفية كبيرة، ومخزنًا للقصص والظواهر والأفكار، فضلًا عن كونها مادة سردية مشوقة تحتوي على الغريب والمدهش مما التقطته عيون تسير في الأرض بالأبدان والقلوب، وأنفس تنفعل بما ترى، وتتبع أحوال الخلق في

أطوار مختلفة، وطبائع متمايزة، وأحوال شتى، بوعي يلم بالأشياء، يلاحظها ويخضعها للتحليل والمقارنة، ويترك لنا هذه المقارنة لنستقرأ من خلالها طبيعة المجتمع المصري والمغربي في زمن الرحلة، والروابط التي جمعت بين المصريين والمغاربة.

شكل رقم (١)

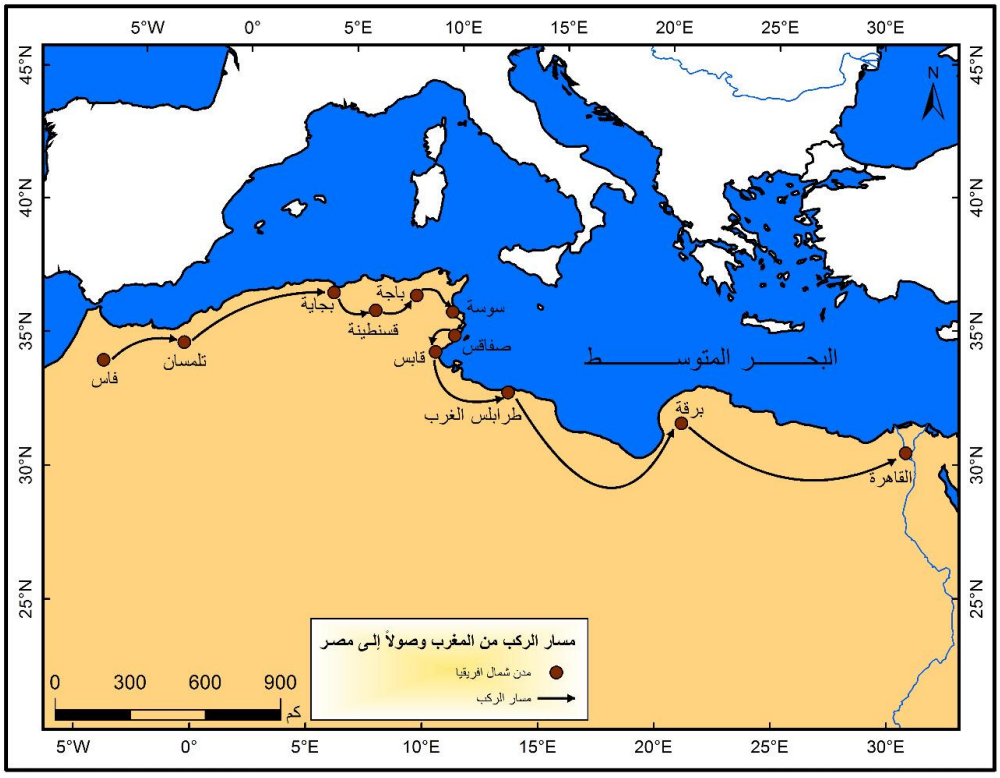

خريطة من إعداد الباحثة اعتمادًا على ما جاء في كتب الرحلات الحجازية إبان القرن الثامن عشر، توضح مسار ركب الحاج المغربي انطلاقًا من فاس وصولًا للقاهرة.